

## المفارقة الإسلامية

بقلم: رويل مارك غيرشت

المصدر: معهد المشاريع الأمريكي لأبحاث السياسة العامة (AEI)



تاريخ النشر

٢٠٠٤

ترجمة: مركز الكاشف للمتابعة والدراسات الإستراتيجية

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة العدد:

في هذا العدد ترجمة لدراسة مهمة منشورة في معهد المشروع الأمريكي تحت عنوان **المفارقة الإسلامية لكاتبه رويل مارك غريثت**، وقد تم التعريف بهذا المعهد وبهذا الكاتب في أعداد سابقة من هذه السلسلة.

وقد تم وضع بعض الأفكار المهمة والأساسية التي تعبر عن روح هذه الدراسة في المستطيلات التالية.

إن هذه الدراسة المهمة تعتبر من النماذج البارزة التي تبين أهمية التواصل المستمر مع العقل الإستراتيجي الأمريكي لمعرفة طريقة تفكيرهم ومدى دقة المعلومات التي يستندون عليها والخطط التي يفكرون بها.. الخ الأمر الذي يسهل عملية الفهم والتحليل الإستراتيجي لناشطينا ويجعله أقرب الى الصواب والحقيقة.

ولابد من التنويه هنا بأن الأرقام الواردة بين قوسين في الترجمة العربية هي أرقام الهوامش الواردة في النص الأصلي، ولم يتم إدخالها في النص المترجم لتجنب الإطالة، فمن يرغب بالإطلاع عليها يمكنه مراجعة النص الأصلي والموجود في موقع المعهد على شبكة الإنترنت.

وللشرق الاوسط المسلم الآن فرص افضل لنشر الديمقراطية بصورة واسعة من اي وقت آخر منذ الاربعينات ولعدة اسباب، أغلبها غير معروفة وحتى لأكثر المدافعين عن الديمقراطية داخل ادارة بوش

وسيلعب شيعة العراق دور الابطال او دور الاشرار في هذه الرواية و خصوصاً مراجعهم الدينية . هل سيدعمون الديمقراطية ، أم سوف يقومون بمحاولة أخرى لخلق دولة دينية اسلامية ؟ هل تفهم ادارة بوش آية الله العظمى السيستاني أفضل مما فعلت إدارة كارتر نحو روح الله الخميني ؟ إن في إختلافاتهم وتشابهاتهم، في القوى التاريخية التي أنتجتهم، يكمن مستقبل العراق و الشرق الاوسط

مع هذا فان شيعة العراق ورجال دينهم يحتمل قد اصبحوا اكثر اللاعبين اهمية في تأريخ الشرق الاوسط المعاصر ، فهم واخوانهم شيعة ايران على الحد الفاصل في تثبيت فكرة الحرية و الديمقراطية في الفكر الاسلامي و الممارسات السياسية. ان شيعة العراق ، و خصوصاً المرجعية الدينية التي تقيم في النجف المقدسة لم يكونوا يوماً ما ديمقراطيين او ليبراليين ، سيكونون اليوم القوة المحركة الدافعة وراء اي نجاح امريكي في العراق

هؤلاء الرجال هم اليوم الحلفاء المهمين في الجهد الديمقراطي للولايات المتحدة و نفترض ان ادارة بوش و رجال الدين الشيعة هؤلاء هم اول من فهم ذلك بصورة صحيحة في العراق

وحتى لو توفي السيستاني فإن الحوزة ستبقى قوة أكثر تأثيراً من اي رابطة لرجال الدين السنة

ولكن الديمقراطية في الشرق الاوسط كما هو واضح لن تنهض أو تسقط بموجب مشاركة السنة العراقيين السؤال المهم الرئيسي إذن هو هل باستطاعة الاسلام السني إعتناق المثل الديمقراطية؟ يمكن للديمقراطية أن تنتصر في العراق لأن الشيعة العراقيين يرغبون فيها

ان أمل الليبراليين والمحافظين الجدد في ان المسلمين المعتدلين والعلمانيين الليبراليين يمكن ان يتنافسوا معاً لكي يهزموا الاصولية التي هي مصدر غني للبن لادنية، وبعبارة ذات مفهوم غربي يجب تصور توساس جيفرسون دون مارتن لوثر

ان على الولايات المتحدة ان تؤيد المسلمين السنة الأصوليين الذين يتنافسون في الانتخابات حتى ولو كانوا غير متأكدين من اخلاقياتهم . علينا ان لانقع في الخطأ نفسه الذي وقعت فيه الولايات المتحدة وفرنسا خاصة في الجزائر عام ١٩٩١ حيث ساند كلا البلدين بقوة قرار الجيش بإلغاء نتائج الإنتخابات وتفكيك الاحزاب السياسية الاسلامية

ان انتصاراً لجبهة الانقاذ الاسلامي في انتخابات ١٩٩١ كان يمكن ان يحرف الحماسة والطاقة للإسلاميين الجزائريين المنفيين ، والمسلمين الفرنسيين وسائر المقاتلين العرب في شمال افريقيا الذين اعتنقوا طرقةً متطرفة في اواسط ونهايات عقد التسعينات

لو ان جبهة الخلاص الاسلامي كسبت انتخابات ١٩٩١ لبدأت ايديولوجيتها الأصولية الساذجة ( الاسلام لديه كل الاجوبة ) بالتفكك في وقت مبكر جداً . سواء كان ذلك الأفضل ام الاسوأ فإن المسلمين كانوا سيصبحون مسؤولين عن قدرهم ومصيرهم وهي الخطوة الرئيسية في منع ١١-٩ ونظريات التآمر الضارة التي تسمم السياسيين المسلمين وثقافة الناس من المغرب الى باكستان . ولا يتمنى المرء السنوات السود للثورة الاسلامية الايرانية لأي بلد ، ولكن الخوف من ثورة اسلامية اخرى ساعد على الإصلاح السياسي في الشرق الاوسط وعلى تفكير امريكا في اصلاح افكار المتطرفين الإسلاميين

وعلى الرغم من الطريقة البطيئة في معارضة مبارك ، فإن مصر تعد البلد العربي الوحيد الذي لديه احسن الفرص للمزاوجة بين الأصولية والديمقراطية

ففي عشرين سنة انهارت الثورة الايرانية واصبح رجال الدين الحاكمون موضع الحقد العميق للشعب وليس للولايات المتحدة فقط . والعملية نفسها لا مفر منها في مصر وفي اي مكان آخر من العالم الاسلامي ، اذا ما صار الناشطون المسلمون دكتاتوريين او ممثلين منتخبين يستخدمون القوة الحقيقية ، ان اصداء النجاح الديمقراطي في العراق قد تكون كبيرة ، ومناقشات السيستاني وأعماله في صالح الديمقراطية ممكن ان يكون لها انعكاس في العالم السني اكثر من ذلك الذي جاء به الخميني ودعوته الثورية

السيستاني وآية الله العظمى الحكيم الشخص الثاني في النجف، هما شخصان معتدلان وغير متباهيان يريدان سياسة الرجل الواحد والصوت الواحد ويتكلمون عنها بالعربية البسيطة . انهم يمكن فهمهم حتى من اقل الناس ثقافة

وإذا ما نظرنا شرقاً نحو ايران ، فإن ظهور الديمقراطية في العراق التي يرهاها رجال الدين العراقيون لن يرحب بها ولن تستقبل بالسعادة في طهران

ذلك ان موقف النجف من الديمقراطية ينطوي على نفي قاطع لحق آية الله الخامنني في الحكم وعلى الرغم من ذلك فإن تقدم الديمقراطية في الشرق الاوسط يحتمل ان يكون مناهضاً لأمريكا الى حد بعيد . ان عقوداً من مناصرة امريكا لدكتاتوري الشرق الاوسط قد ساعدت على خلق البنلادنية . والغضب الشعبي على واشنطن بسبب الاعمال السابقة ربما لن يتضاءل بسرعة حتى لو ان الولايات المتحدة غيرت موقفها وساندت جميع الاحزاب التي تدعو الى حكومة تمثيلية

اذا ما كان هناك من علاج للمنافسة والمجابهة بين الغرب والاسلام فإن الديمقراطيات المسلمة ضرورية له

ومن المفيد التاكيد مرة أخرى على إن الديمقراطية حتى لو فشلت في أول جولاتها فإنها تبقى الخيار الافضل المتاح للولايات المتحدة . ينبغي أن تتحرك الاصولية الاسلامية لكي تقضي على البنلادنية

ان العصر العلماني في الشرق الاوسط الذي تسارع بعد الحرب العالمية الاولى عندما القى المسلمون بانفسهم في أحضان العلمانية ، ، والاشتراكية القومية والشيعية قد زال منذ امد بعيد بل لقد مات في ١٩٦٧ عندما قضى الاسرائيليون على ( الانسان العربي الجديد )

ولكن الولايات المتحدة ، في الحقيقة ، ليس لديها بديل من ان تحول تحالفاتها من الحاكم الى المحكوم

## المفارقة الإسلامية

رجال دين شيعة ، اصوليون سنة

ومجىء الديمقراطية العربية

بقلم: رويل مارك غيرشت

هل هناك نهاية لظاهرة بن لادن

( البنلادنية ) . إذا ما استمر الجهاديون بالتكاثر الى ما لا نهاية مستمدين القوة و القدرة على تجنيد مقاتلين جُدد من ثقافة الجهاد الاسلامى النابضة ابدًا بالحياة فقد تصبح الحروب على الارهاب و في كل من العراق و افغانستان حروباً ذات مسعاً عقيم . لقد حولت احداث ٩ / ١١ انتباهنا الى منطقة الشرق الاوسط . و مع تزايد قتلى الامريكان و بقية العناصر الاجنبية المشاركة في العمليات العسكرية في الخارج . فإن نشر الديمقراطية في مناطق يتزايد فيها عدم الترحيب بالامريكان يبدو للكثيرين امراً ساذجاً بشكل خطير .

و يبدو ان العالم العربي يكن لنا من الكره بقدر ما كان يكره بريطانيا و فرنسا الاستعماريين . ويتحدث الكثير من الناس المعنيين في واشنطن بجديه عن انسحاب متسارع من العراق .

اما المرشح الديمقراطى للرئاسة السناتور ( جون كيري ) فيبدو انه يرى ان الشرط الاساسى المسبق لأي خروج امريكى من بلاد النهرين هو الاستقرار و ليس الديمقراطية (١) وحتى الجمهوريون كانت لهم شكوك مقلقة قبل الحرب عن حكمة الغزو

(٢) . اما في جلسات موائد العمل الخاصة فيترايد عدد الناس الذين يشككون - او يتناسون - تأييدهم للرئيس بوش الاب لقراره اسقاط نظام صدام حسين ، كما ان العديد ممن في اليمين و اليسار يعتقدون ان حرب العراق لا علاقة لها بل وتتاقض صراع ادارة بوش ضد التطرف الاسلامى و امله في رؤية التحولات السياسية في المنطقة .

ان القوة التي لامثيل لها في التاريخ المتنفذة اليوم في الولايات المتحدة و الشرق الاوسط من المحتمل ان تبقىنا في العراق و افغانستان كما انها قادرة على ان تمنع كلا البلدين من الانحدار الى الفوضى .

و الاكثر اهمية ، انهما قد يدفعان العالم الاسلامى نحو الديمقراطية . و لكن هذا الحشد من القوات لم يجد ما توقعته ادارة بوش عندما عبرت دبابات ( ابرامز ) حدود الكويت لقد اصبح الامريكان ورجال الدين المسلمين الشيعة و الاصوليين الاسلاميين السنة هم اللاعبون الرئيسيون فى تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، وليس بينهم الا القليل من الخصائص المشتركة او الاعجاب المتبادل ، وهم بالتأكيد ليسوا برأي واحد تجاه حرب العراق و صراع واشنطن ضد إرهاب الجهاديين الاسلاميين . ولكن الثلاثة معا هم مفاتيح نشر الديمقراطية في الشرق الاوسط الكبير . إن رجال الدين الشيعة و الاصوليين السنة هما خلاصنا من هجمات ٩ / ١١ جديدة . وبالطبع فإن ادارة بوش لاترى الامر كذلك . ولا معظم المسلمين ولكننا اذا ما نظرنا الى الولايات المتحدة ما بعد ٩ / ١١ و الى شيعة العراق و ايران و الى السنة العرب

في الاماكن الاخرى فلن يكون من الصعب علينا ان نرى لماذا يعتبر قدوم الديمقراطية في الشرق الاوسط ما هو إلا حلم لرئيس امريكى يريد تحقيقه وهو لايعلم شيئاً عن العالم الاسلامي . ان الولايات المتحدة والرافدين الاساسيين من المؤمنين الاسلاميين يشكرون اسامة بن لادن وصدام حسين حيث اصبح لدى الثلاثة مصير مشترك قاس .

### الامريكان

يعتقد بعض المؤرخين المرموقين امثال برنارد لويس من جامعة برنستون و فواد عجمي من جامعة جون هوبكنزان الجهادي السعودي اسامة بن لادن قد جلب لنا واقعا عن الشرق الاوسط المسلم اكثر ايلاماً مما سببه سقوط شاه ايران و جنرالات الجزائر . لقد غدت الفردية الشمولية المتطرفين الاسلاميين . لقد ولدت روح ٩/١١ الجهادية في السبعينات والثمانينات في العربية السعودية ومصر وباكستان من زواج مشوش بين الحكام الدكتاتوريين والاصوليين الاسلاميين . احياناً بهجوم عنيف يصبح الاصوليون ابطالاً معارضين للطغاة . وكثيراً ماكانت تدعمهم الدولة فكانوا إما موالين لها او " معارضين " متساهلين ، يدعمون سلطة الحكام المحافظين اخلاقياً وهم يوجهون احباطات مجتمعاتهم نحو الخارج باتجاه الاعداء الغربيين . وبالنسبة للمتطرفين الذين اردوا كسر الوضع الراهن وتحطيمه كانت امريكا دائماً تعتبر القوة الساندة وراء استبدادية الحكام (٣) .

إشارة الرئيس جورج بوش الاب امام برنامج " المنح الوطنية للديمقراطية " وهو برنامج وافق عليه الحزبيون والذي يمنح هبات تمول من قبل حكومة الولايات المتحدة لدعم نمو الديمقراطية على النطاق العالمي . اشار الرئيس الى انه يرى ان الربط بين الاستبداد والمتطرفين الاسلاميين هو الدرس الذي نستقيه من ٩/١١ . وقد استعمل لغة ليبرالية لم يستعملها قبله حتى جيمي كارتر او رونالد ريغن ، وهو اقوى المدافعين عن حقوق الانسان في القرن العشرين . والمتوجه ابدأ نحو منطقة الشرق الاوسط . لقد تبنى الرئيس بوش هذا الملف على الرغم من الشكوك الاوربية القديمة والامريكية الحديثة بشأن امكانية نشر الليبرالية فى المجتمعات الاسلامية .

لقد فرضت اتفاقيات هلسنكي عام ١٩٧٥ احترام " حقوق الانسان والحريات الاساسية " . لقد اصبحت ينظر اليها على نطاق واسع على انها حصان طروادة خلف الستار الحديدي . كما استعملها داعمى هذه الاتفاقية من الغربيين لضعاف الامبراطورية السوفياتية غير ان الرئيس جيرارد فورد لم يدرك ان اعلان حقوق الانسان الاساسية هذه يمكن ان تطبق على حلفاء الولايات المتحدة من الدول الاسلامية من الشرق الاوسط (٤) وعلى الرغم من ان القليل من المسؤولين الامريكان كانوا واضحين كوضوح الدبلوماسي - المؤرخ جورج كينان ، لاشك ان الكثيرين كانوا يتعاطفون مع ملاحظاته القائله " لاداعى للافتراض ان محاولة تطوير و استخدام

المعاهد الديمقراطية هي افضل طريق لكثير من الناس من (غير الاوربيين) (٥)

ومع ذلك فإن الامريكان عادة ما ينفرون من الايحاء القائل بوجود تأثير فرنسي على افكارهم والمبدأ الفرنسي يقول: لاينبغى ان تحكم الثقافات و الدول غير الغربية بالمقاييس الغربية كما ينبغى ان تكون متحررة من الاجانب ، و خصوصا من التدخل الامريكى . بعد (٨) اشهر من سقوط بغداد ، رفض الرئيس بوش، الماضي و اعلن رسمياً استراتيجية جديدة للشرق الاوسط والتي طورت في البيت الابيض منذ خطاب " محور الشر" في ٢٩ / ١ / ٢٠٠٢

ان ٦٠ عاماً من تجاهل الامم الغربية لانعدام الحرية فى الشرق الاوسط لم تفعل شيئاً لتجعلنا اكثر اماناً ، لانه على المدى الطويل لايمكن شراء الاستقرار بسعر الحرية و طالما بقى الشرق الاوسط مكان لاتزدهر فيه الحرية فإنه سيبقى مكاناً للتوتر والعنف الجاهز للتصدير. ومع انتشار الاسلحة التي تسبب عواقب كارثية لبلدنا و اصدقائنا فيكون من العبث ان نقبل بالوضع الراهن لذلك تبنت الولايات المتحدة سياسة جديدة وهي استراتيجية التقدم الى الامام نحو الحرية فى الشرق الاوسط . وهذه الاستراتيجية تتطلب نفس الاصرار والقدرة والمثالية التي اظهرناها سابقاً وسوف تعطي نفس النتائج . وكما فى اوربا و آسيا وفى كل المناطق فى العالم فإن تقدم الحرية يؤدي الى السلام (٦)

وتغيرت الممارسات الدبلوماسية الامريكية . فوزارة الخارجية صارت توصي بشكل علنى، او طبقاً لاقوال بعض

الدبلوماسيين الامريكان ، بالتوسع فى المطالبة بالانفتاح السياسى من قبل الانظمة التي لم ينتخب رؤساؤها من قبل الشعب . ان مبادرة مشروع بناء الديمقراطية فى الشرق الاوسط الكبير و شمال افريقيا الذي شجعه ابتداءً مجلس الامن القومى يحاول التعامل مع الصعوبات الدبلوماسية و الاستراتيجية لتنمية الديمقراطية فى منطقة ليس فيها حاكم مسلم واحد قد انتخب من قبل شعبه . وتشتمل المبادرة على جهود امريكية - اوربية لزرع بذور المؤسسات الليبرالية و مبادئها و ايجاد الحماية لها - و خصوصاً حقوق المرأة - فى عموم العالم الاسلامى . وهذا المشروع المشابه لاتفاقية هلسنكى قد امتص مبادرة الشراكة لوزارة الخارجية الامريكية فى الشرق الاوسط التي تبحث عن برامج متطورة لقانون تقدمي للعائلة ، و مكافحة الامية ، الحكم المحلى ، حقوق المرأة و منطقة التجارة الحرة للشرق الاوسط الذي من المؤمل ان يستخدم الرأسمالية و التجارة كمحرك للحرية السياسية (٧)

وبعيداً عن الحكومة ، فإن الديمقراطيين ، ومعهد بروكنز قد تفاعلوا بعمق مع امير قطر التقدمي فى المنتدى الامريكى - الاسلامى السنوي الذي يبحث عن مجالات للحوار و ارضيات مشتركة بين امريكا و الاسلام المعتدل التقدمي (٨) وقد طلب الرئيس السابق بل كلنتون فى منتدى الدوحة فى كانون الثانى ٢٠٠٤ طلب من القيادة و المفكرين المسلمين فى الشرق الاوسط عدم استخدام المواجهة بين اسرائيل و الفلسطينيين

وثنيين . وحتى وقت مبكر من القرن العشرين هاجم مقاتلون وهابيون المدن الشيعية في جنوب العراق و كانت آخر غارة على المنطقة عام ١٩٢٢ عندما سيطر ابن سعود مؤسس الدولة السعودية الحديثة على مدينتي مكة او المدينة المقدستين عام ١٩٢٥ منهياً بذلك قروناً من حكم البيت الهاشمي .

قامت قوات ابن سعود بتدمير الأضرحة المقدسة للشيعية ، و في عام ٢٠٠٣ قرر ولي العهد الامير عبد الله أن يشمل الشيعة في الحوار وقد كان هذا بالتأكيد مراعاة للجار العراق ، حيث الأغلبية الشيعية على وشك بناء أول دولة عربية بسيطرة شيعية . و قد تصبح أعمال التمييز الحادة ضد الشيعة في المملكة قد تصبح مواضيع للمناقشات في العراق . و باعتباري موظف ديمقراطي أقدم في الكونغرس ، أتعامل مع الشرق الاوسط قد لاحظت بعد زيارتي للعربية السعودية في كانون ثاني عام ٢٠٠٤، إن توقيت وجدية الإصلاح في السعودية مرتبطان وبالتأكيد بالمبادرات الأمريكية. إن الرئيس بوش قد أطلق شرارة على ما يبدو النقاش الجاد في المجتمع السعودي حول الحكومة المسؤولة والشفافة.(١١)

و قد قام الرئيس مدى الحياة المصري " حسني مبارك " بجولات في اوربا و الشرق الاوسط في شباط و آذار ٢٠٠٤ في جهوده للاتفاق على مبادرة الديمقراطية الامريكية (١٢) . و قد حاولت الجامعة العربية التي مقرها القاهرة و تعمل عادة كمكتب لوزارة الخارجية المصرية مواجهة اية اجراءات امريكية محتملة . و طالما اعتبر رئيسها

كذريعة لتجنب دعم الاصلاح الاقتصادي والسياسي (٩)

وتتعرز هذه النظرة ، طبقاً لاقوال موظفي وزارة الخارجية ، تتعرز بانتظام في السياسة الخارجية والدهاليز المظلمة والتي تنظر الى الصراع العربي الاسرائيلي باعتباره القضية الخارجية الاساسية لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط .

وقد شخص دانيال بنجامين وستيفن سايمون المدير والمدير السابق لمكافحة الارهاب في مجلس الامن القومي في ادارة كلنتون . ومؤلف ربما اهم كتاب عن ظهور بن لادن وهو كتاب ( قرن رعب الارهاب ) شخص نظرة العالم الحر" للدمقرطة على انها ، مهما كانت خطيرة و غير قابلة للتنبؤ ، فإن السير بها ومواكبتها ربما يكون المفتاح الرئيسي للقضاء على رعب الارهاب على المدى الطويل " (١٠) .

و بالتأكيد فإن حكام الشرق الاوسط قد اخذوا هذه المناقشات بصورة جادة . فقد بدأ ولي العهد السعودي الامير عبد الله في حزيران ٢٠٠٣ " حوارات وطنية " حول الحاجة الى شفافية اكبر في الحكومة و اتصالات افضل بين الحاكم و المحكوم . و تضمن الحوار الاول الاقلية الشيعية في المملكة التي صادف انها تعيش في المحافظة الشرقية اغنى مناطق العربية السعودية بالنفط . و يعتبر ملف المسألة الشيعية في منتهى الحساسية ، فالقيادات العسكرية للمؤسسة الدينية الوهابية ، و التي تشكل العمود الفقري للسلطة في العربية السعودية منذ القرن الثامن عشر، وهذه المؤسسة تعتبر الشيعة كفاراً أو



( عمرو موسى ) وهو وزير الخارجية المصري السابق ، من ان حل الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي هو المقدمة المطلوبة لأي مناقشة خارجية حول الديمقراطية في العالم العربي (١٣) . وقد كشفت القمة العربية المنعقدة في آذار ٢٠٠٤ في تونس عن خلافات جديدة بين الحكام العرب خصوصاً حول الرغبة في قبول اية مبادرة تغيير ديمقراطي في المنطقة . و قد اغلق الرئيس مدى الحياة التونسي زين العابدين بن علي باب المناقشة بإعلانه الرسمي غير الواقعي من ان الاعلان النهائي لاجتماعات القمة يجب ان يكون عن الامور الجوهرية . و ان ثلاثمائة و خمسون مليون عربي يريدون ان يشعروا ان الكبت الذي يسلط على منطقتهم قد انتهى ( ١٤ ) .

و قد يتساءل المرء مندهشاً ما إذا كان اياً من الديمقراطيين او الجمهوريين يريدون حقاً دفع حقوق الانسان و الديمقراطية في المنطقة . آخذين بنظر الاعتبار ان الرابط بين ٩/١١ و الطغيان شئ واحد وان المجاملة ولي الذراع بشكل مستمر لدكتاتورية و ملوك الشرق الاوسط هو لتحرير آخرين .

وقد عمقت افعال القاعدة بشكل رئيس العلاقات بين وكالة المخابرات المركزية الامريكية و اجهزة الامن و المخابرات في العالم الاسلامي . و خصوصاً مع اجهزة السعودية و مصر و باكستان، الدول الثلاثة التي كانت سياساتها الداخلية و منظماتها الدينية معرضة للانتقاد لتزايد ونمو إرهاب بن لادن . ان سياسة تسليم الارهابيين المشكوك بهم، الى دولهم الاسلامية الحليفة لغرض استجوابهم استجواباً " وقائياً " والتي بدأت

لاول مرة ايام ادارة كلنتون قد اصبحت جزءاً مكملاً لعمليات وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية لمواجهة الارهاب و يبدو ان التهديد الارهابي قصير الامد اكثر ضغطاً و اجراماً من الخطر طويل الامد للدكتاتوريات الاسلامية ، وان النظرة " الواقعية " القديمة للمنطقة - من ان المسلمين العرب الذين يمتلكون الثقافة و الدين و التاريخ قد انتهى بهم المطاف الى يد الحكام المستبدين - هذه النظره قد اختفت تقريباً من نخبة السياسة الخارجية الامريكية .

فمثلاً ، هاجم خبير مواجهة الارهاب السابق ريتشارد كلارك بصورة عنيفة فكرة ان تغيير الثقافة السياسية للشرق الاوسط ممكنة بل و مرغوب فيها طالما انها ، مثل الحملة على العراق ، قد تبعدنا عن الحملة ضد القاعدة و التي تتطلب منا تقوية العلاقات مع الدول الاسلامية ( ١٥ ) . وكان زبغنيو بريجنسكي مستشار الامن القومي للرئيس السابق جيمي كارتر يرى عكس ما يرى اليوم الرئيس بوش انه يرى ان بن لادن و القاعدة معزولان في ذلك الوقت وهما نتاج الحرب السوفياتية - الافغانية . و ليسا حركة ذات تاريخ و انتشار بين مقاتلي السنة الذين اصبحوا اكثر عدائية للغرب بتأثير الدكتاتوريات التي سادت بعد الحرب العالمية الثانية في الشرق الاوسط . و عندما اخذ بالنظرة الاوربية السائدة تجاه المنطقة فإنه يرى الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي هو عقدة السمعة الامريكية السيئة في العالم الاسلامي ، و الشرارة الرئيسية للعنف الاسلامي المعاصر . ولأنه يعطى الاولوية

للاستقرار و لعلاقة صداقة فى الشرق الاوسط و يفضلها على ديمقراطية عجولة من صنع امريكى ، لذا فإنه ينصح " من الامور الاساسية بالنسبة لصناع القرار الامريكى ان لا تُضللهم نصائح المفكرين النظريين بفرض الديمقراطية من الخارج و بصورة غير متأنية (١٦) .

كما بدأ اكثر الواقعيين تأثراً في امريكا و هو وزير الخارجية الامريكى السابق ( هنري كيسنجر ) يعبر عن إهتمامه في أن طموح و إندفاع ادارة بوش لنشر الديمقراطية في الشرق الاوسط قد تكون اكثر من اللازم . ففي مؤتمرات وزراء الخارجية الاوربية تدمر كيسنجر من الطبيعية ( التروتسكية ) للمحافظين الجدد اللذين تقدم حماسهم تفكيرهم المنطقي وهو بلا شك يتذكر سقوط الشاه فى ايران ، و حذر من إنه " عندما تقم عملية نشر الديمقراطية في فراغ سياسى وفكرى فإن النتيجة لا بد ان تكون الفوضى او انظمة معادية لقيمنا وربما لأمتنا " و على الرغم من كونه داعماً للحرب على العراق فقد حذر كيسنجر من إن " إختزال التحولات الديمقراطية عبر قرون في إطار زمني غير مناسب قد ينتج عنه عواقب وخيمة أبعد من مقصدها . و يرى كيسنجر إن نجاح الديمقراطية الحقيقى فى العراق يعتمد على " طبقة علمانية وسطى تستطيع أن تولد قوة كافية تحتم التمثيل الديمقراطى الكامل " . (١٧)

إن الخوف من ظفر التطرف الاصولى الاسلامى بالسلطة من خلال صناديق الاقتراع سوف يتزايد بلاشك و

يتقوى كلما بدت الديمقراطية فى الشرق الاوسط اقرب احتمالاً . و عندما يتحدث مسؤولون امريكى كبار حول تغيير " عبر اجيال " فى الشرق الاوسط فإن مبادرة الشرق الاوسط الكبير سوف تشغلنا فى صراع طويل الامد لإحتواء الميليشيات الاسلامية و دحرها ، و يقولون ايضاً انهم ليس لديهم الرغبة الفورية لقلب الوضع القائم فى المنطقة . و صممت وزارة الخارجية عمداً مبادرة الشراكة فى الشرق الاوسط و صرفت ٢٩ مليون دولار عام ٢٠٠٢ و ١٠٠ مليون دولار فى ٢٠٠٣ للتركيز على برامج صغيرة لاتثير المخاوف بل وفى الحقيقة مسيطر عليها (١٨) وحتى المحافظين الجدد الناشطين و المدافعون عن الديمقراطية فى العراق قد لا يحبذون هذه الفكرة كثيراً إذا ما اضعفت الانتخابات من الحريات الشخصية و الفرص المهنية للنساء ، و المجتمع العراقى اليوم ، حاله حال بقية المجتمعات فى الشرق الاوسط ، اصبح محافظاً اكثر مما كان عليه عام ١٩٦٨ حينما جاء حزب البعث للسلطة لأول مرة . و قد يكون تقدم الديمقراطية و حقوق المرأة (فى الحقيقة ) موضع خلاف فى معظم العالم الاسلامى ، خصوصاً فى مصر حيث يسيطر الأصوليون الاسلاميون و المنظمات ذات التوجه الدينى التى تهيمن على الحياة الاجتماعية و من المهم ان نستذكر هنا ان جبهة الانتقاذ الوطنى الاسلامى الجزائرية والمعروفة افضل بالمختصر الفرنسى F.I.S قد ظهرت فى كانون اول ١٩٨٩ من خلال تنظيم مظاهرات حاشدة ضد العلمانية و حقوق المرأة ، و فى كل الاحتمالات فإن جبهة

الانقاذ الوطني كانت ستفوز بالمجلس التشريعي ان لم يكن بالرئاسة في انتخابات عام ١٩٩١ مالم يقرر الجنرالات الجزائريون الغاء العملية بعد فوز الاسلاميين في الجولة البرلمانية الاولى ، وقد اثار قرار الالغاء اكثر حمامات الدم سوءاً في بلدان الشرق الاوسط منذ الحرب الداخلية بعد الانسحاب الفرنسي من الجزائر عام ١٩٦٢ .

و تلعب المرأة دوراً كبيراً واضحاً في تشكيل الثقافة و الممارسات الديمقراطية الغربية الحديثة . و قد يصبح الامر كما كتب المدير السابق لكادر تخطيط سياسات وزارة الخارجية الامريكية (ريتشارد هاس ) كتب ان " المجتمعات الابوية التي يلعب فيها النساء دوراً ثانوياً بالنسبة للرجال هي مجتمعات يلعب فيها بعض الرجال دوراً ثانوياً بالنسبة لرجال آخرين . اما الاهلية والاستحقاق فتأتي في المقعد الخلفي بعد المحسوبة والمنسوبة " (١٩) و يعتقد ( برنارد لويس ) ان دور المرأة في المجتمعات الغربية كان عاملاً مهماً في توسيع الفجوة بين الحضارات الاسلامية و الغربية في العصر الحديث (٢٠) . ومن الواضح انه يمكن للديمقراطية ان تبدأ وتعيش في مجتمعات تكون المرأة فيها مواطناً من الدرجة الثانية سياسياً وفي علاقاتهم الشخصية بالرجال او حسب مقولة بلزاك " هن وسيلة للمتعة و الشرف والفضيلة في المنزل " وان لم تكن الحال بهذا الشكل فما كانت للديمقراطيات الانكلو - امريكية و الألمانية و الفرنسية و اليابانية ان تتطور .

و لدى اليمين واليسار الأمريكي ، أمل في أن الاسلاميين المعتدلين الذين يؤمنون في

بعض او، ربما العديد، من التوجهات المركزية للحضارة الغربية المعاصرة - كفصل اكبر للكنيسة عن الدولة ، دور القانون ، حكومة وفاق ، حقوق المرأة - هم الأغلبية الصامتة في العالم الاسلامي . منتظرين ضعف قبضة الحكومات الدكتاتورية في الشرق الاوسط ، وفي اشاراته المتكررة لأهمية (المعتدلين الاسلاميين ) بعد ٩/١١ يبين ولفويتز نائب وزير الدفاع بأنه يعتقد أنهم الحلقة المفقودة للديمقراطية في الشرق الاوسط (٢١).

و بالنسبة للعديد من المسؤولين الامريكان الذين يدعمون الحرب في العراق والعديد من الامريكان الذين لايدعمون الحرب ولكنهم مع ذلك يأملون خيراً ، فإن العراق اصبح اكبر تجربة للديمقراطية حيث يفترض ان يعمل العلمانيون والى حد ما السياسيون الليبراليون كمنار لبقية دول المنطقة . وقد ركز المحافظون الجدد داخل الحكومة والمدافعون من الخارج عن حرب الاطاحة بصادم حسين دعمهم بوقت مبكر لأحمد الجبلي وهو رئيس مجموعة في المنفى سابقاً المؤتمر الوطني العراقي وإلى حد كبير لانهم يعتقدون إن الظروف داخل العراق ( عقود من حكم شمولى ) والجبلي ( علماني ليبرالي ، ولكن شيعي مؤمن ) هذه الظروف تقدم امكانية ديمقراطية ليبرالية تولد اخيراً في دولة كبيرة قوية شرقاً أوسطية .

ولكن " المسلمون المعتدلون " قد لا يكونوا مفتاحاً لشرق أوسط جديد و اقل تهديداً ، فإذا ما عرف أتباعهم بأنهم ذوي ثقافة علمانية او لهم ميول معينة نحو الولايات المتحدة

فسيفقدون قواعدهم كحركة ديمقراطية تتطور في المنطقة. وهم ببساطة أقلية، وقد يفقد الامريكيون الحماس وتقل عزيمتهم لنشر الديمقراطية في الشرق الاوسط مالم يظهر المنتصرون شهباً بنا . إن أي فرد له فهم انكلو - امريكى تقليدي للديمقراطية ونشوءها وتحولاتها - الديمقراطية ابتداءً هي وسائل اولية لغايات ليبرالية - فسوف يرتد غريزيا عن فكرة منح السلطة لأشخاص متسلطون متعصبون .

وقد يتساءل العديد عن مغزى " استراتيجىة متقدمة للحرية " إذا ما إستخدم المستفيدون منها حريرتهم لتهديد إستقرار الولايات المتحدة واسرائيل ورفع أسعار النفط . و بصورة عامة فإن الحكومات المنتخبة ، دائماً ما تصرف أموالها على البرامج الاجتماعية أكثر من الحكومات الدكتاتورىة . و النفط هو المورد الوحيد للعملة في الشرق الاوسط.

و بعد العراق ، سيفضل أغلب الديمقراطىون و الجمهورىون فى واشنطن والى حد كبير ، أن لا تبند الولايات المتحدة كثيراً عن دول اوربا الغربىة التى لاتعنيهم فكرة نشر الديمقراطية فى العالم الاسلامى إطلاقاً. إن مجتمع ما وراء الاطلسى هو حجر الزاوىة للمؤسسة السياسىة الخارجىة الامريكىة . ويعتقد العديد من الاوربىين ان عدم الاستقرار السياسى فى المنطقة - و الضغط على الدكتاتورىات والممالك فى الشرق الاوسط للاصلاح قد يهدد استقرارهم - وقد يؤدى الى موجة جديدة من اللاجئين العرب - المسلمىن عبر البحر الابيض المتوسط . كما

انه من المحتمل ان الحكومات الدكتاتورىة تقيد سفر مواطنيها اكثر من الحكومات الديمقراطية . و يقطن الآن في فرنسا من الاقلية العربىة - المسلمة ما يشكل على الاقل ٧% من سكانها . وان الكثير من سكان الضواحي و الارياف للمدن الكبيرة هم من المسلمىن إن نمو الميليشيات الاسلامىة داخل هذه المجتمعات الاسلامىة دق ناقوس الخطر للامن الداخلى الفرنسى منذ حرب الجزائر الداخلىة وتزايد الهجرة منها والارهاب فيها وذلك فى منتصف التسعينات ( فى ١٩٩٥ ) قام الجزائرى الاصل الفرنسى الدراسة ، قائد احدى المجموعات الاسلامىة ( خالد خلخال ) بتفجير شبكة القطارات فى باريس و حاول حرف القطار السريع عن سكتة . (٢٢)

ان الخوف من المهاجرين المسلمىن و المسلحين الاسلامىين فى اوربا لا يقل عنه فى الاماكن الاخرى حيث يحافظ المسلمون على نسبة مئوية عالية من السكان و يتكاثرون بسرعة اكبر من غير المسلمىن . و من المحتمل ان تتقاطع فكرة نشر الديمقراطية فى الاراضى العربىة مع مصالح الاوربىين وقلقهم المتزايد بشأن سكانهم المسلمىن . و بعد احداث ١١ / آذار فى مدريد وسقوط الحكومة المؤيدة للحرب و الموالىة للامريكىان فى اسبانيا فليس ببعيد ان تتأى الحكومات الاوربىة بنفسها عن المسعى الامريكى الذى قد يجلب المزيد من عدم الاستقرار فى الشرق الاوسط ولكن خوف ٩ / ١١ من ٩ / ١١ آخر ربما ستكون كافية لدفع و توجيه ولو بعضىية وبطؤ ، الاجماع الحالى فى واشنطن بشأن ضرورة تغيير سياسات الشرق الاوسط المسلم مركز الكاشف للمتابعة و الدراسات الاستراتيجية

و مع ذلك فان دوائر السياسة الخارجية للديمقراطيين و الجمهوريين يختلفون فيما بينهم كما يختلفون بعضهم مع البعض الآخر و بمرارة حول ما إذا كانت الحرب في العراق قد ساعدت او اخرت معركة امريكا ضد ارهاب الجهادي اسامة بن لادن فإن أي من الطرفين لا يبدو أنه يميل الى رفض الربط بين الطغيان والتطرف الاسلامي . و كما ذكر تقرير لجنة ٩ / ١١ فإن المعالجات ينبغي أن تأتي من المجتمعات الاسلامية ذاتها ، وتدور حول "التسامح ، حكم القانون ، الانفتاح ، الاقتصادي والسياسى وتوسيع فرص المرأة " كما ينبغي على الولايات المتحدة أن تدعم مثل هذه التطورات .(٢٣) .

ولاشك في ان نوايا بوش الاكيدة لاقامة الديمقراطية في العراق سوف تشجع الفكر الديمقراطي في السياسة الامريكية تجاه المنطقة برمتها . وحتى لو خضعت المدرسة الواقعية للرئيس لوزارة الخارجية فإن البنتاغون ومجلس الامن القومي اقل حماساً لتقديم مبادرات لدعم الديمقراطية في الشرق الاوسط وتؤكد الخطابات الرئاسية السياسة الخارجية بشكل كاف ، على الاقل ، على منع البيروقراطية من العودة الى ما قبل عالم ٩ / ١١ ، إن التغييرات الديمقراطية المتسارعة في فهم واشنطن للشرق الاوسط ، بالتأكيد ليست قريبة الحدوث ولكن اتجاه التحول فى ظل ادارة بوش تبدو لارجعة فيها . وحتى اذا كان السيناتور ( جون كيري ) قد اقترح ان ( الاستقرار ) وليس ( الديمقراطية ) هي الهدف العملي الاكثر أهمية للقوات الامريكية في العراق ، فإنه سيكون من الصعب للسيناتور ،

إذا ما تم انتخابه رئيساً فى تشرين الثانى أن يغادر العراق قبل تفعيل الديمقراطية .  
 إن إقامة الديمقراطية ، هى بالفعل اقل الخيارات خطورة بالنسبة للولايات المتحدة وعلى الرغم من تزايد الاصوات من اليسار واليمين التى تعتقد إن خلق " رجل عراقى قوي " سيسمح لواشنطن بسحب قواتها . وقد كان هذا حاضراً ، بالتأكيد ، عندما بينت مستشارة الامن القومي ونائبها لاياد علاوي رئيس وزراء العراق - إن إعادة الحياة للجيش العراقى الذى يقوده السنة والبعث أثبت صعوبته ، وعملياً فإن لهذا الامر معنى معيناً ، كما لا يوجد الكثير من الضباط السنة البعثيين السابقين الذين يريدون ربط انفسهم بالنظام الديمقراطى الجديد حيث يتوجب عليهم مقاومة إنبعثات السنة من جديد ، الذين تربطهم روابط عائلية وثيقة معهم ، نيابة عن النظام السياسى الذى يقوده الشيعة وقد تكون الولايات المتحدة محظوظة لأن هذا الأمر لم يحدث لأن جيشاً كهذا سيؤدي الى نزول الشيعة الى الشارع بالجملة خصوصاً مقتدى الصدر . إن العنف المضاد لامريكا الذى رأيناه من أتباع الصدر قد يكون لاشئى مقارنة بالعنف الذى قد تواجهه أمريكا في حال أحس الشيعة بأن أمريكا تريد إعادة الجيش البعثى بقيادته السنية .

وبالمقابل فإن أية محاولة لخلق قوة شيعية متسارعة بدون عملية سياسية موازية لها لتشكيل حكومة وطنية منتخبة من المحتمل أن تثير كما سوف نرى ، آية الله العظمى السيستانى وكبار رجال الدين فى النجف

داعين المجتمع الشيعى للوقوف ضد امريكا  
وضد حكومة غير منتخبة .

وقد يكون رئيس الوزراء ايباد علاوي الذي يتمتع بسمعة جيدة عند البعثيين السنة ، راجباً في الوقوف ضد رجال الدين الشيعة ولكنه من المحتمل ان لايجد الكثير من الشيعة البارزين ممن يود الوقوف معه .

و قد تثير أية دكتاتورىة شيعية كانت أم  
سنية مخاوف الكرد فينصلوا عن العراق . وهذه فكرة إنتشرت بين الشباب الكرد من غير الناطقين بالعربية و نمت بينهم منذ ١٩٩١ و تحت مظلة الحماية الانكلو - امريكية، و قد يدخل كل من الاكراد في تركيا و ايران ، و الولايات المتحدة و العرب العراقيين في نزاع بين كل واحد منهم و الآخر إذا ما حدث استقلال كردستان العراقية و قد لايرغب الاكراد في الوقت الحالي بالانفصال عن العراق ، ربما لأنهم يقدرون المحاذير الجيوبوليتيكية و الموقع الاقتصادي الذي هم فيه ، و هناك امر واحد يدفعهم الى إحداث هذه الثغرة الكبيرة ألا و هي عودة الدكتاتورىة العربية فى بغداد مرة اخرى.

و مهما كانت عملية تأسيس ديمقراطية فاعلة في بلاد الرافدين صعبة ، فإن محاولة تقديم اعادة تشكيل جيش بصورة سريعة قد يجبر واشنطن على إقحام المزيد من القوات ، و ليست بالقليلة ، لحماية الامريكان و العراقيين . و هذا ما دعى الدكتور " كيسنجر " الى وصف بناء الديمقراطية بـ " استراتيجية الخروج الوحيدة " . (٢٤)

و قد لايبعد الجهد و المثابرة الامريكيتين الا سياسة الانسحاب السريع المقدمة من قبل

ادارة كبرى المتوقعة و المتأثرة بحساسيات  
عميقة الجذور للفترة الفيتنامية ، ولكن كيري  
قد يناقض الفهم الشائع لاحداث ١١ / ٩ مالم  
يعترف علناً للكثيرين من رجال كلنتون الذين  
تضمهم ادارته . فهم يعلمون ان الهروب من  
العراق - باعلان النصر على صدام حسين  
ومن ثم الخروج - سوف ينظر اليه على طول  
الشرق الاوسط و عرضه على انه هزيمة  
ماحقة للولايات المتحدة ، و قد تنقوى " البن  
لادنية " و التى سبق وان تقوت نفسياً بعد  
الانسحاب الامريكى ، ايام كلنتون ، من  
الصومال . فإذا ما حصل اي انسحاب سريع  
من العراق و قد يتجاهل كيري أخطاء أتباع  
كلنتون بخصوص القاعدة ، و الذين يختلفون  
بعمق شديد حول الحرب إذ يبدو اغلبهم إنهم  
يرونها ( كجرعة محفزة و ليس كجرعة  
مضادة للتطرف الاسلامى ) ، أما تحليل  
بريجنسكى للارهاب الاسلامى - لا رابط  
بين دكتاتورىة المسلمين و التطرف الاسلامى  
المنافى لامريكا و ان المشكلة هى فى  
الصراع الفلسطينى - الاسرائيلى - هذا  
التفسير قد يجد له ارضية ضمن الحزب الذي  
يؤمن بعملية السلام ووطن قومى للفلسطينيين و  
يؤمن بالاديان و العقائد . و يبقى قلب و روح  
الحزب الديمقراطى قلقاً إذ لم يكن شديد  
الحساسية ، من الاستخدام المفرط للقوة  
الامريكية ، مع هذا فان عجلة الموت التى ما  
زالت تحصد الكثير من القتلى فى العراق تبقى  
قليلة جداً قياساً الى ما قد يحدث فى حالة  
الخروج السريع ضمن خطة ادارة كيري . و  
حتى لو كان كيري يحبذ فكرة " الاستقرار " فى  
العراق و " رجل عراقى قوي " كما يفعل

لم يخلقوا من قبل جورج بوش، بل هم الجواب المتنامي من الداخل على أنظمة سياسية راكدة منذ عقود ولكنهم سوف يخبروك بصراحة: ان السياسة الجديدة لنشر الديمقراطية الامريكية لا يمكن ان تكون غير مرغوب بها أو إنها عبئ عليهم لقد منحتهم صوتاً و اوجدت اذن صاغية لهم وعلى الاقل حماية جزئية ضد التعسف و الاضطهاد،إنها امور ثلاثة لم يكونوا يمتلكوها قبل سنة ٠ ( ٢٥ )

إن أشهر دعاة الليبرالية في العالم العربي المنشق المصري ( سعد الدين ابراهيم ) كان يحفز القوى الداخلية العاملة للتغيير الحقيقي في الشرق الاوسط ٠ و تنمو اليوم معارضة متوحدة في مصر ، حيث إنظم العلمانيون مثل سعد الدين مع الاسلاميين الاصوليين في المطالبة بحكومة اكثر تمثيلاً ٠ و قد وعد المرشد الاعلى الجديد للاخوان المسلمين - و هي المنظمة الاقدم و الاكبر تأثيراً في العالم - وعد اتباعه في آذار ٢٠٠٤ بخطة اصلاح سياسي تدريجية و دستورية و قد تجاهلها مبارك حتى الآن ، كما اوضح في اعلان الاسكندرية الذي كتب في آذار ٢٠٠٤ في المؤتمر العربي للمنظمات غير الحكومية الذي ترأسه ( خريج جامعة هارفرد ) مدير مكتبة الاسكندرية الجديد ( اسماعيل سراج الدين ) و كما علق ابراهيم بسخرية ، إن الحكام العرب أهملوا تقرير الامم المتحدة بخصوص التنمية البشرية في العالم العربي لعام ٢٠٠٢ كأنه يخص منطقة أخرى في كوكب اخر ( ٢٦ ) ان التقرير الموقع من قبل عدد من المفكرين العرب البارزين ، كان يتحدث عن إنعدام

كبار مسؤولي " ادارة بوش " فإن الاستخبارات المركزية ، و وزارة الخارجية و رئيس الوزراء اباد علاوي و الجيش الامريكى ، ببساطة لن يكونوا قادرين على تشكيل جيش عراقي بوقت قصير ، قادر على مواجهة مقتدى الصدر و جيشه " جيش المهدي " او قوات العصابات السنية ذات التدريب الافضل ٠ و تعتمد صلابه و قدرة اباد علاوي على البقاء على الولايات المتحدة تماماً ، و لا تغير ديناميكية تسارع مغادرة الامريكان من العراق الا الانتخابات الوطنية و الشرعية القادمة معها إن الخوف من عراق مفكك و " البن لادنية " سوف تؤكد اغلب الظن ان المدرسة الفكرية الناشئة بعد ٩ / ١١ التي يقودها ( لويس ) ( و عجمي ) قد تعرضت لهجوم مضاد من قبل " الواقعيين " و سوف تستمر باحتلال المركز المرموق داخل الحزبين الجمهوري و الديمقراطي ، و الشرق اوسطيون انفسهم يشددون معارضتهم للفاشية و سلطة الدولة على مقدرات الفرد ٠ ان من الصعب على الامريكان تجاهل نداءات الديمقراطية وكما لاحظ كاتب عمود ليبرالي في صحيفة ( واشنطن بوست ) الليبرالي جاكسون داين و الذي يكتب عادة عن العالم العربي :

إن أكثر ما يشجع في الشرق الاوسط في السنة الماضية هي القصة التي تروى عن ظهور حركات مدنية داخلية تطالب بالتغيير السياسي ، و قبل سنتين إما انها لم تكن موجودة او كانت في السجن ، و الآن هي في الخارج في الهواء الطلق ، حتى في اكثر الاماكن المتخلفة سياسياً في المنطقه :

مصر ،السعودية ، سوريا .... هؤلاء الناس

حريات الفرد و حقوق المرأة و التعليم في الشرق الاوسط ( ٢٧ ) و سوف يكون من الصعب بصورة متزايدة على واشنطن أن تقف مع مبارك او من يخلف الدكتاتور ذو الستة و سبعين عاماً ضد المطلب المصري بنظام منفتح . و في ايران، كانت أفكار الحرية و الديمقراطية تترسخ في النظام الديني منذ وفاة آية الله خميني في عام ١٩٨٩ . و قد نمت عاطفة موالية للامريكان في البلاد بصورة كبيرة ، و حتى رجال الدين المناوئين لأمريكا صاروا يبحثون عن وسيلة لتدعيم شعبيتهم ، يلعبون بفكرة اجراء استفتاء وطني حول استئناف العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة . ان سيطرة المحافظين على الجناح الاصلاحى في المؤسسة الدينية في الانتخابات التي تسيطر عليها الدولة في شباط ٢٠٠٤ ليس من المحتمل ان توقف الجدل الطويل بين الشعب الايراني و خصوصاً رجال الدين ، و هو جدل مستمر منذ مائة عام حول الحكومة الدستورية و الديمقراطية و هذه المناظرات المحتمة بينهما يغذيها عادة علماء الدين في كل من ايران و العرب الشيعة في النجف في العراق المركز الرئيسي لفكر المذهب الشيعي خلال اغلب فترات القرن التاسع عشر و القرن العشرين .

و اذا ما تنقل شخص في الشرق الاوسط منذ ٢٠٠٣ و إذا ما استمع الى او قرأ الاعلام الايراني و العربي ، فمن المستحيل عليه ان لا يرى ان كل العيون الآن مصوبة نحو العراق و الجميع يريد ان يرى فيما إذا كانت الولايات المتحدة ستتهزم في النهاية ام

ستنتصر . و مع كل الامل يراقبون الشيعة الذين يدينون للغزو الامريكى وهم يقلبون الهبنة السنبة عليهم منذ قرون . و إذا ما نظر اي فرد الى أخبار القنوات الفضائية العربية حول " المقاومة " الشيعية و السنبة للغزاة الاجانب و الحكومة العراقية الجديدة فإنه سوف يعتقد ان الامريكيين ينزلون نحو الهزيمة في العراق . و قد اقنع العنف المسلح لتيار الصدر العديد في الولايات المتحدة ، وكما يبدو في كل اوربا كذلك ، ان ديمقراطية يقودها الشيعة هي مجرد حلم وإذا ما فكرت الولايات المتحدة بالانسحاب بصورة مفاجئة ، فقد يؤدي الصراع على السلطة الى ظهور رجل شيعي قوي على القمة وإذا ما فشلت الولايات المتحدة في العراق فإن مبادرة الشرق الاوسط الكبير تعتبر بحكم الميثة . وكما تفشل كل موجات الديمقراطية في الشرق الاوسط على حد قول البروفيسور صموئيل هنتغتون من هارفرد ، او على الاقل في الامد القريب ، وكما اوضح هيوم في كتابه حول نشر الديمقراطية في القرن العشرين ، الموجة الثالثة ان العلاقات المشتركة للقوى تؤدي عادة الى اشعال حركات ديمقراطية ناجحة و عنصر النجاح كان غالباً هو حركة الولايات المتحدة ورغبتها .

وللشرق الاوسط المسلم الآن فرص افضل لنشر الديمقراطية بصورة واسعة من اي وقت آخر منذ الاربعينات ولعدة اسباب، أغلبها غير معروفة وحتى لأكثر المدافعين عن الديمقراطية داخل ادارة بوش . فقبل الأربعينات أعطى العصر الليبرالي نسبياً عند



نهاية الاستعمار الاوربى طريقاً للفاشية،  
والشيوعية والحكم العسكرى الفردى . ان  
عراق ما بعد صدام حسين هو نموذج مصغر  
للفرص و الحظوظ لحكومات ذات تمثيل اوسع  
في المنطقة . و سيلعب شيعة العراق دور  
الابطال او دور الاشرار فى هذه الرواية و  
خصوصاً مراجعهم الدينية . هل سيدعمون  
الديمقراطية ، أم سوف يقومون بمحاولة  
أخرى لخلق دولة دينية اسلامية ؟ هل تفهم  
ادارة بوش آية الله العظمى السيستاني أفضل  
مما فعلت إدارة كارتر نحو روح الله الخميني  
؟ إن فى إختلافاتهم وتشابهاتهم، فى القوى  
التاريخية التى أنتجتهم، يكمن مستقبل العراق  
و الشرق الاوسط .

## الشـيعة

عندما ادركت سلطة الائتلاف المؤقتة التى  
يقودها السفير (بول بريمر ) للمرة الاولى فى  
خريف ٢٠٠٣ ان رجال الدين الشيعة سوف  
يكونوا اللاعبين السياسيين الاكثر اهمية فى  
العراق المحتل من قبل امريكا ، لم يكن هذا  
الاكتشاف سعيدياً . و قد اعتاد سياسيو  
الولايات المتحدة فى بغداد التعامل مع نخبة  
من العرب السنة المتأثرون بالغرب او  
منظمات عراقية شيعة علمانية فى المنفى مثل  
المؤتمر العراقى او الوفاق الوطنى ، و كذلك  
بالنسبة للصحفيين الذين اذا ما تواجدوا فى  
العالم العربى فإنهم عادة ما يكونون برفقة  
السنة او المسيحيين وهما والدا هذه الامة  
العربية الحديثة ولم تكن فكرة القومية  
مستساغة من قبل الهيئات الطائفية و رجال

الدين الشيعة . و عندما تكون معهم وجها  
لوجه فانهم قليلوا المرح ، لهم شخصية بعيدة  
عن الحماس و العنف بصورة عامة و بذلك  
يختلفون عن اقرانهم السنة الذين يتصرفون  
بعيداً عن الرسميات والشكليات . كما وانهم  
يميلون الى التحدث بايجاز - إن لم يكن بعدم  
الرغبة تشعرك بالطرده - للاجانب واسلوبهم  
اقرب الى اسلوب المحامين ، لقد أصبح علماء  
الشيعة شركاء محبطين لكثير من المسؤولين  
الأمريكان فى موضوع إعادة إعمار العراق . لم  
يعملوا بموجب الخطة و يصرون على  
ديمقراطية أكثر وأسرع مما تعتقد به أمنياً  
سلطة الائتلاف المؤقتة . قاوموا التصديق على  
الدستور المؤقت والقانون الإدارى  
الانتقالى، الذى يختبر القوة العليا للشيعة فى  
صناديق الاقتراع، ويصرحون الآن بأنهم قد  
لا يلتزمون بالوثيقة التى وقع عليها الأعضاء  
الشيعة فى مجلس الحكم الإنتقالى .

مع هذا فان شيعة العراق ورجال دينهم يحتمل  
قد اصبحوا اكثر اللاعبين اهمية فى تأريخ  
الشرق الاوسط المعاصر ، فهم واخوانهم  
شيعة ايران على الحد الفاصل فى تثبيت فكرة  
الحرية و الديمقراطية فى الفكر الاسلامى و  
الممارسات السياسية . ان شيعة العراق ، و  
خصوصاً المرجعية الدينية التى تقم فى  
النجف المقدسة لم يكونوا يوماً ما ديمقراطيين  
او ليبراليين ، سيكونون اليوم القوة المحركة  
الدافعة وراء اي نجاح امريكى فى العراق ،  
بل و من المحتمل جداً ، " الاستراتيجية  
المتقدمة للحرية" بعدها ( ٢٨ ) و فى الحقيقة ،  
و على وجه الدقة فإن السياسيين فى العراق  
يبحثون عن مزج السياسة والايمان فى نظام

تكون فيه الحكومة في خدمة المصلحة العامة بشكل واضح و يمكن ان يكون العراق محفزاً لتغيير ديمقراطى كبير في المنطقة .

لقد صدم آية الله الخميني العالم العربي بالثورة الاسلامية في ١٩٧٩ و ألهم الاسلاميين السنة المتطرفين لينفذوا ادوار عنيفة من اجل السلطة . وقد يؤثر نظيره آية الله السيستاني بصورة اعمق على اصول المنظمات الاسلامية والاحزاب السياسية الاصولية المتطرفة والتي يعتمد عليها مصير الديمقراطية فى الشرق الاوسط . و حتى لو كان السنة العرب و السنة غير العرب لايقبلون الفكرة بسهولة فان مستقبلهم السياسي القريب على الاغلب هو في ايدي اولئك الذين قللوا من شأنهم و اضطهدهم على مدى ١٣٠٠ سنة . وسيقاوم اغلب الامريكان الليبراليون و الامريكان المحافظون بشدة فكرة ان يكون رجال دين اسلاميين ، وأصوليين من غير رجال الدين ، ان يكونوا هم مفتاح التحرر فى الشرق الاوسط من بعد عقود من الكره للغرب ، إن لم يكن البغض - الذي يكونه للولايات المتحدة و اسرائيل و لقضايا التقدم مثل حقوق المرأة ، و هؤلاء الرجال ، و هم ليسوا من كانت الحكومة الامريكية و الصحافة ترفع من شأنهم دائماً و أحياناً تدافع عنهم من الليبراليين المسلمين و العلمانيين ، هؤلاء الرجال هم اليوم الحلفاء المهمين فى الجهد الديمقراطى للولايات المتحدة و نفترض ان ادارة بوش و رجال الدين الشيعة هؤلاء هم اول من فهم ذلك بصورة صحيحة فى العراق .

ان ما لا يقل عن ٦٠ % من سكان العراق هم من الشيعة العرب ، و كذلك كرد العراق و قد

اضطهد كلاهما بقسوة من قبل انظمة الحكم السنية التي هيمنت على حكم العراق الحديث و على عكس الاكراد ، فإن الشيعة وخصوصاً رجال الدين ليسوا شاكرين لامريكا لانقاذهم من براثن صدام حسين و مذابحه الجماعية لانهم لم ينسوا ابداً الخيانة الامريكية لهم (و كما يقال دائماً فإن الخيانة كلمة قبيحة فى العربية ) فبعد حرب الخليج الاولى عندما وقعت الولايات المتحدة عاجزة في صحراء جنوب العراق في حين كان صدام حسين يقوم بقمع الانتفاضة الكبيرة التي قام بوش الاب بتشجيعها و قد اعدم عشرات بل مئات الآلاف منهم على يد صدام في مقابر جماعية . و قد اصدر جميع رجال الدين فتاوى تخص فصل الجثث بعضها عن بعض و غسلهم و الصلاة عليهم و اعادة دفنهم وفق الاصول الشرعية . و قد حاول هيوم هوران الدبلوماسى الامريكى الشهير الذي يعتبر على نطاق واسع افضل مناصر للعرب منذ الحرب العالمية الثانية حاول للفترة من مايس الى تشرين ثان ٢٠٠٣ ان يطور علاقته مع المراجع الاربعة فى النجف الاشرف و هم الاقدم من رجال الدين الشيعة فى العراق . ثم تبعه بنجاح مايكل غي فولير موظف الخدمة الخارجية و المتحدث الجيد بالعربية و ذلك بناء على نصيحة من هوران قبل عقود فى العربية السعودية و هو طالب سابق لدى المستشرق البريطانى الكبير هاملتون جيب من جامعة هارفارد و هو نصف فارسى بالولادة .

وكان هوران المستعرب الوحيد لسلطة الاحتلال و البالغ من العمر ٦٤ عاماً مستودع لمعارف الشرق الاوسط كانت تستدعيه السلطة

لأغراض لغوية بحتة ( فقد لاحظته و هو يستقبل نساء يغسلن الملابس لدى سلطة الائتلاف و قدّم شكوى بسبب تفتيش الجنود لهن وإزعاجهن في الحمام ) .

ان ( هوران ) هذا الذي فضل رفقة رجال دين شيعة على رجال دين سنة - مناقشاته مع الشيعة " لم تعرقل بسبب الأسئلة الصعبة المتعلقة بالمسألة العربية الاسرائيلية " ( ٢٩ ) - قد قابل في النهاية ثلاثة من المراجع الدينية الاربعة ، و كان ( هوران ) قد رتب بالفعل مقابلة مع آية الله السيستاني في آب ٢٠٠٣ و كان هو المسؤول الامريكى الوحيد الذي وافق السيستاني على مقابلته و لكن المقابلة لم تتم بسبب صعوبات ميكانيكية في الطائرة العمودية التي كان من المفروض ان تنقل السفير من بغداد و في اليوم التالي ، ٢٤ آب حصلت محاولة لأغتيال آية الله محمد سعيد الحكيم و تغيرت الأجواء في النجف ، ووفقاً لما قاله هوران فلو ان السيستاني قابل المسؤولين الامريكان فيما بعد هل كان ذلك سيجعل السيستاني يبدو كراغب في حماية الامريكان، و لم تتطور اية قناة مباشرة بين آية الله العظمى و الامريكان لاحقاً .

ان مثابرة (هوران) في دراسته لعلوم التاريخ الاسلامي بقيت لسوء الحظ غير ذات فائدة لايتمتع عليها موظفي وزارة الخارجية والاستخبارات المركزية الامريكية والموظفين المدنيين في البنّاغون وهؤلاء هم العقل المركزي لسلطة الائتلاف المؤقتة ووفقاً للمسؤولين في وزارة الخارجية والاستخبارات المركزية فإن السفير بريمر ، على وجه الخصوص، لم يكن يحبذ الاتصال مع رجال

الدين الشيعة . وكان يتوجب على سفير مجلس الامن القومي روبرت بلاس ويل والمنسق للشؤون العراقية في البيت الابيض "ان يقرأ بإمعان وتأمل قانون بريمر في كانون الاول ٢٠٠٣ لضمان عدم المواجهة مع السيستاني من خلال الخطة الامريكية الحالية لاستخدام نظام (الكوكس) لإنتخاب حكومة عراقية مؤقتة ،ومع ذلك فإن مظاهرات حاشدة واعمال شغب قام بها الاعضاء الشيعة في مجلس الحكم العراقي المعين من قبل الولايات المتحدة ، قد علمت ادارة بوش وسلطة الائتلاف انهم لا يستطيعون بناء نظام ديمقراطى متجاهلين رجال الدين الكبار فى النجف ، ولازلت المشاعر المضادة لرجال الدين قوية بين المسؤولين الامريكان .

ولم يتم استبدال هوران بأي مستعرب آخر ، فقد غادر العراق فى تشرين ثان ٢٠٠٣ كوسيط امريكى مع المراجع الدينيين . وقد ايد المسؤولون فى ( لانغلى فوغى باتوم) ومجلس الامن القومى بشدة وصراحة ايجاد علوي المؤيد للسنة لرئاسة الوزراء لانه لم يكن يوماً قريباً من رجال الدين . وكان حزبه الوفاق الوطني ، دائماً ملاذاً للظباط السابقين من السنة وبالتالي لم يكن عنده اتباع من الشيعة . وعلوي هذا رجل علماني شيعي ليست له ميول ثقافية دينية ،والذي رفض آية الله السيستاني مقابلته مراراً حتى اختاره مجلس الحكم وادارة بوش كرئيس للوزراء . لقد بارك السيستاني اختيار علوي ربما ، كما يرى الكاتب العراقي كنعان مكية ، لانه كان يرغب فى رؤية ماذا كان علوي قادراً على

امتصاص نقمة العرب السنة في وسط العراق  
(٣٠)

وحتى بين المسؤولين الامريكان الذين ينظرون الى السيستاني كعامل استقرار في العراق - فأية الله السيستاني تواصل مع رجال الدين السنة العرب . وعمل ضد المسلحين الشيعة المناوئين للامريكان، اتباع مقتدى الصدر ، كان يوصى بالتعاون ، وليس بالمواجهة مع الاحتلال مشككاً ومحذراً من نواياه السياسية ،وقد يتسأل البعض عن" اصله الفارسي " فالسيستاني ، مثل العديد من رجال الدين في العراق ، هو ايراني بالولادة ودراسته المبكرة كانت هناك . كان التشيع الايراني المحفز للثورة الاسلامية الحديثة في العالم الاسلامي - ولازال هناك شيء في نفس بعض الامريكان - ومعهم العديد من العلمانيين العراقيين - تجاه ملالي الفرس. بالرغم من وجودهم حوالي ستين سنة في العراق، للسيستاني عائلة قريبة في ايران ، ما قد يعرضها للابتزاز من قبل ملالي ايران ، المولعين باستخدام تهديد العوائل كوسيلة لاسكات المعارضين من رجال الدين فإن البعض لايعتقد ان مجرد انتهاء الدراسة الدينية (للفقيه) تؤهله تكييف الشريعة الاسلامية وفقاً للمتغيرات الدائمة والمستمرة للمعايير واملاءات ومتطلبات الديمقراطية . ومن بين العشرات من المسؤولين الامريكان الذين قابلتهم في واشنطن والعراق بعد سقوط صدام حسين ، فإن القليل منهم فقط لايتخوفون من الشيعة ومن حقيقة إن مستقبل العراق ومصير الامريكان فيه يعتمد على رجال

يضربون انفسهم سنوياً بالسلاسل والسيوف للتكفير عن خطاياهم للتعبير عن حبهم لله .  
ومع أول انتخابات وطنية، المقررة في كانون ثان ٢٠٠٥ ، ستبدأ الاحزاب الدينية الشيعية بجمع اتباعها وعلان مبادئها بصورة اوسع واقوى. لايستطيع اي حزب الاستحواذ على الغالبية العظمى من الاصوات بمفرده . كلما عرفنا عنهم المزيد كلما يحتمل أن نزداد غضباً .

**المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق**  
إن أكثر المنظمات الشيعية المعروفة هي المجلس الاعلى للثورة الاسلامية في العراق التي يقودها عبد العزيز الحكيم شقيق مؤسس الحركة المتوفي محمد باقر الذي اغتيل في آب ٢٠٠٣ بواسطة تفجير انتحاري كبير في النجف، و عبد العزيز هذا هو قريب آية الله العظمى محمد سعيد الحكيم ثاني اكبر رجال الدين تأثيراً في العراق و رجل الدين الوحيد الذي دمه عربي خالص من العراق ، و هو الاخير من تسعة اخوة جميعهم ، ما عدا محمد باقر ، ماتوا تحت حكم صدام .

تأسس المجلس الأعلى للثورة الاسلامية تحت رعاية آية الله الخميني ، لذلك فهو المؤسسة الشيعية الوحيدة الرئيسية حسنة التنظيم ذات قوات مدربة ، و هي فيلق بدر ، الذي يتراوح عدده بين ١٠٠٠٠ - ٢٠٠٠٠ رجل ( اعطى كل من مسؤولي المنظمة والمسؤولين الامريكان اعداداً مختلفة ) ، و في حالات القتال ، ربما تكون قوات بدر افضل في القتال من قوات " جيش المهدي " التابع لمقتدى الصدر . في المناطق و المدارس الشيعية قام اعضاء من قوات بدر بإجبار النساء بارتداء

ملابس محتشمة • و يظهر بوضوح ان ايران قد جندت عدد من ضباط الحرس الثوري و الاستخبارات الايرانية بين العشرات من الآلاف من الحجاج الايرانيين الذين يستطيعون ببساطة العبور لزيارة المراقد المقدسة داخل العراق • ووفقاً لمعلومات كلاً من العراقيين و الامريكان فان افراداً من اعضاء فيلق بدر قد ساعدو هؤلاء المسؤولين الايرانيين فى نقلهم واقامتهم داخل العراق وفى احتياجاتهم الاخرى التى كانت تتطلب وجود عراقيين عرب • نسبياً فإن القليل من الايرانيين غير العرب حتى بين رجال الدين يتحدثون العربية بصورة جيدة ، وعدد كبير من العراقيين المنفيين الى ايران خلال الحرب العراقية - الايرانية يتكلمون الفارسية بطلاقة • وحتى سقوط صدام كان فيلق بدر يعتمد مادياً على ايران ، ومن غير المحتمل ، على الاغلب ، ان بدر والمجلس الاعلى للثورة الاسلامية قد استقلوا مالياً عن طهران • ووفقاً لرجال دين ايرانيين فإن الحرس الثوري الايراني العماد الحقيقي لقوة رجال الدين فى الجمهورية الاسلامية ما زال يعتبر قوات بدر عملياتياً جزءاً مكملاً ضمن تشكيلة قيادة الحرس الثوري • ويبقى سؤال مفتوح هو فيما اذا كانت موجودة كمنظمة ام لا •

وهناك سؤال آخر مفتوح هو ميول عبد العزيز السياسية ، فهو كما تقول التقارير قريب الى الايرانيين كما ان اخيه الشهيد متعاطف مع نظام سياسى يكون فيه رجال الدين اعضاء بارزين ، إذا لم يكونوا مسيطرين وفاعلين وغالباً ما كان ينتقد "فشل" الامريكان فى العراق • فبعد اغتيال اخيه

اعلن عبد العزيز ان " العراق يجب ان لا يبقى محتلاً ويجب ان يغادر الاحتلال حتى نتمكن من بناء العراق كما ارادنا الله ان نفعل " (٣١) مع هذا فعندما زار عبد العزيز واشنطن فى كانون اول الماضى من ٢٠٠٤ ، طلب فى لقاء سري مع الرئيس جورج بوش من الامريكان ان يبقوا فى العراق ووصف من قبل "هوران" على انه " ليس عدواً طبيعياً" للامريكان وهو "مصدر قوة للجميع ، لنا ولرغبات العراقيين الطيبة " (٣٢) ولكن هوران لم يجد عند عبد العزيز " مؤهلات طبيعية ليكون قائداً فى المواقف السياسية الصعبة وغالباً ما يبدو متردداً (٣٣) ولا "يظهر الثقة بالنفس التى يمتلكها كبار رجال الدين عادة " (٣٤) كما ان أفعال عبد العزيز أكثر إعتدالاً من خطاباته •

#### مقتدى الصدر

ومن المحتمل اكثر ان المجلس الاعلى سيوجه خطابات مناوئه لامريكا بشكل متزايد فى محاولة منه لجذب الشيعة ذوي الميول الدينية والذين قد يميلون الى التصويت للحركات الراديكالية خلف مقتدى الصدر ، وهذا بدوره من اكثر العوائل الثورية المشهورة فى العراق ، وبنوي الصدر تأسيس حزب بصورة رسمية بإسم (الصدريين) على اسم والده محمد صادق الصدر الذي كان يلقي خطابات ثورية ضد صدام حسين حيث قتل فى عام ١٩٩٩ • ويعيش انصار الصدر فى الاحياء الشيعية الفقيرة فى كل من بغداد والبصرة وعلى الرغم من انه كما يظهر يجند اعداد كبيرة من المدن ذات الكثافة السكانية المتوسطة مثل الكوت والناصرية ومناطق الشيعة الاخرى ، وهو

ورفع نفسه عن المجلس الشيعى ، الهيئة السياسية الجديدة غير الرسمية التى تمثل كلاً من الشيعة المتدينين والعلمانيين ، وقد يصبح المجلس ذو قوة سياسية مهمة فى العراق خصوصاً اذا ما اتجه الشيعة للتصويت ككتلة موحدة .

وكما حصل فى ايران فى مطلع الثورة الاسلامية ، حيث كان الشبان المخلصين لآية الله الخمينى فى مواجهة رجال الدين التقليديين فى ايران ، فان الصديين هم مفتاح تغيير القناعات و الولاءات فى العراق . ولا يبدو ان المسيرة الجماهيرية الحاشدة للسيستاني مشيا الى النجف بعد عودته من رحلة المعالجة الطبية فى لندن فى آب ٢٠٠٤ و التى اجبرت الصدر على العودة الى المدينة و مغادرة مرقد الامام علي ، سوف تنهى تحدي الصدر لرجال الدين التقليديين ، مع هذا فاذا كان ( الجلبى ) سيستمر فيما وصل اليه السيستاني فى تحييد الصديين من خلال السياسة و الديمقراطية ، فانه سيصبح فوراً قوة سياسية وطنية مهمة . و تقديراً لانجازته ، فان المعتدلين الشيعة من سكنة المدن و الذين يخشون الصدر و لكن لايرغبون فى رؤية المجتمع الشيعى قد انشغل بقتال داخلى ، قد يدعمون الجلبى للحصول على منصب وطنى مهم ، كما ان المؤسسة الدينية التى كانت تنظر اليه بريب قد تدعم المؤتمر الوطنى . و إذا ما تمكن ( الجلبى ) او اي سياسى شيعى اخر من ازاحة علاوى مع الصدر و اتباعه فان رئيس الوزراء ، الذى مازال يمتلك دعماً شعبياً قليلاً داخل المجتمع الشيعى و قد يجد نفسه بدون اي مستقبل سياسى إذا ما اصبحت الانتخابات ، و

بدوره قد تلقى بلا شك الدعم الايرانى . ان للصدر شخصية قوية ذات تأثير على الشارع و بين الفقراء العراقيين . ويستمد رجال الدين الشيعة ثورتهم من الثورة الاسلامية . و قد تلقى الصدر تغطية مهمة فى الاعلام الايرانى الخاضع للقيادة الايرانية الدينية ، على خامنئى ، و الحرس الثورى ، الحارس و الحامى للسلطة الدينية فى ايران . و يبدو ان الحرس الثورى هو اللاعب الايرانى الاساسى داخل العراق .

باستثناء السيستاني ، وربما آية الله العظمى محمد سعيد الحكيم ، فإن الصدر هو الوحيد ذو قاعدة سياسية صلبة وواسعة مخصصة له . ان تخمين النسبة المئوية للشيعة الموالين للصدر صعب جداً . اما تخمين النسبة المئوية لأتباعه الذين سيستمرون بالاخلاص له فى حالة معارضته للعملية الديمقراطية الجارية ضمن الانتخابات فستكون اكثر مدعاة للشك . و الرهان الجارى اليوم على المتعاطفين مع الصدر قد يكون من ١٠- ١٥ % من شيعة البلاد . و قد حاول ( احمد الجلبى ) رئيس المؤتمر الوطنى العراقى الذى هيمن على مجلس الحكم حتى اسقطه بريمر و بلاكويل ، حاول ان يرجع الصديين مرارا الى التيار الشيعى الرئيسى . و لكن لم تظهر اية اشارات لاحتمال نجاحه . و لحد الآن فان هؤلاء الشبان لم يظهروا اي تقدير للسياسة المعتدلة للرجال الاكبر منهم، و بأخذه النجف و مرقد الامام علي ، و القيام بلعبة جديدة للسيطرة على المساجد المهمة المنتشرة فى العراق والالتزام بتمويلها، قد قلل الصدر من سلطة السيستاني و رجال الدين التقليديين

ليس المسؤولين الامريكان ، عامل الحسم في السياسة العراقية .

و حتى اذا ما هادن اية الله العظمى السيستاني و صفح عن الصدر و اتباعه و انقذ رجل الدين الشاب من الملاحقات الامريكية ، و من هؤلاء الذين هم داخل المجتمع الشيعي الذي يتمنون موته او اقصاءه ( ينظر العديد من رجال الدين الكبار الشيعة اليه على انه اكبر خطر يهدد رجال الدين التقليديين )  . فإنه شخصياً قد لايقود اية حركة اسلامية بعد الانتخابات المستقبلية . و ربما اعتبر إن مناورة سياسية من هذا القبيل هي دون مستوى عائلته ، عائلة الشهداء، و قد اعطى لحد الان تلميحاً بسيطاً على التسوية السياسية إذ يعتبرها نصراً على المستوى البعيد ، و مع ذلك فإن الصدر قد يستطيع تحويل نفسه الى سياسي متجاوب مع التطلعات الانتخابية لمجتمعه .

و قد عرف الصدر بحبه للطعام ، لذا فقد افتقر الى الجسم المناسب الذي يؤهله ليكون مقاتلاً مجاهداً . لقد كان باستطاعته ان يتمتع بالشهادة في قتاله ضد القطعات الامريكية مرات عديدة الا انه لم يفعل ذلك . و بعد انسحابه من النجف فى آب ٢٠٠٤ ادرك الصدر انه لا يستطيع اثاره تمرد شيعى بمفرده و لم يستطع ان يحصل عل انصار له كما فعل السيستاني . في هذا الوقت يعتبر المقياس الحقيقي الوحيد للولاءات المستقبلية هي صناديق الاقتراع . و بغض النظر عما حدث للصدر ، فان حركته المعتمدة على الشبان لا تبدو انها ستختفي كقوة سياسية مهمه ، و على الرغم من ان الصدر سيحاول ان يشكل حزباً تحت سيطرته فان مشاركته في العملية

السياسية قد تثبت انه غير قادر على ادارة مثل هذه الاندفاعة الثورية . إن الشبان التابعين او المعجبين بالصدر قد يجبرون على الذهاب الى اماكن أخرى و غالباً ما ستكون إما الى المجلس الاعلى للثورة الاسلامية او الى الحركة الاسلامية المسلحة الاقدم و الاصلب عوداً (حزب الدعوة الاسلامية) .

### حزب الدعوة الإسلامية

لقد تأسس هذا الحزب عام ١٩٦٧ و يعتبر اقدم منظمة شيعية سياسية في العراق . و الدعوة هو تشكيلة عنيدة من النشطاء الاسلاميين و بقيادة مشتركة و توجهات روحية . لقد ادرك الحزب ان آية الله العظمى السيستاني هو اكثر رجال الدين اهمية ، و لكنه لم يكن يوماً ما تنظيم يعرف بحسن و لائه لرجال الدين . و كما هو الحال مع الحركة الصدرية فإن اعضاء حزب الدعوة لا يهتمون اصل السيستاني الايراني . لقد بدأت هذه المنظمة عملها في الستينيات او السبعينيات و جندت الشيعة من الاماكن التي كان يسود فيها الحزب الشيوعي العراقي و الذي كان اكثر الاحزاب فعالية في الاربعينات و حتى الستينات بين الشيعة (٣٥) و على الرغم من الاضطهاد الوحشي الذي حصل من قبل نظام صدام حسين ، فإن حزب الدعوة في جنوب العراق ظل محافظاً على خلايا فعالة تتجنب شرطة صدام السرية .

و مع بقائهم مسلحين و واضحين بشأن نواياهم و امانيتهم باقامة حكومة اسلامية فان رجال الدين المعتدلين و المتطرفين الذين هم روح الدعوة و جنودها العاملين هم لينينيون فى سلوكهم و مظهرهم اكثر من اي من الاحزاب

المرجع الدينى الكبير خصوصاً بعد مغادرة السفير (هوران)، واصبحت المهمة اكثر تعقيداً وفهماً بعد ان اصبحت سلطة الائتلاف المؤقتة معتمدة على ممثلين من المجلس الاعلى و حزب الدعوة والمؤتمر الوطنى العراقى لنقل الرسائل من والى آية الله العظمى .

ان السفارة الامريكية في العراق والتي هي اصلاً اكثر بيروقراطية من سلطة الائتلاف المؤقتة بسبب هيكلها الداخلى ولها نفس المخاوف من استخدام اشخاص من خارج المجمعات المحمية . لامتلك هذه السفارة الا القليل من المعلومات عن المجتمع الشيعى وفرقه . وقد يبقى السيستاني ورجال الدين الاخرين غير واضحين في اولوياتهم ضمن المجتمع الشيعى على الرغم من ان رجل الدين الصدر لايرغب بالتحرك عكس تيار المتطرفين . ووفقاً لاقوال رجال دين آخرين قريبي الصلة بالسيستاني فإن المرجع الدينى الكبير يكره العنف وبسبب شخصيته وممارساته وتربيته فإنه رجل دين يعتمد التوافق الداخلى، اي انه على عكس الخميني - سوف يحاول قدر المستطاع ان يعكس ذلك في المجتمع الشيعى . تاريخياً، غالباً ما تفرق الشيعة على اسس ايديولوجية - عائلية، وشخصية وعلى الاغلب حسب حكاهم من العثمانيين والبريطانيين والسنة العرب وقد لا يصر السيستاني على طلبه في اعادة كتابة قانون الادارة الانتقالى بشكل لايسطيع معه الاكراد او السنة من ان يعيقوا تبني دستور جديد . وحالما تبدأ عجلة الانتخابات السياسية في العراق بالدوران - ومن غير المحتمل ان العنف فى المثلث السنى سوف يدوم حتى

العراقية الاخرى . وفي المستويات الاعلى فإن الدعوة كانت داعمة لسلطة الائتلاف المؤقتة . و قد رتب ابراهيم الجعفري ، قيادي مهم في حزب الدعوة و عضو في مجلس الحكم اغلب الاتصالات الحساسة بين الامريكان ورجال الدين الكبار في النجف . ووفقاً للمسؤولين الامريكان فى العراق، فإن معلوماته حول الشؤون الداخلية لرجال الدين الشيعة و المجتمع هي من اكثر المعلومات تاميناً من قبل وزارة الخارجية و الاستخبارات المركزية الامريكية . و يعتقد بيير - جين لويزارد باحث فرنسى حول العراق و صاحب افضل كتاب حول الشيعة العراقيين La Formation de Irak (Contemporation) . (٣٦) يعتقد ان حزب الدعوة سوف يلعب دوراً مزدوجاً ، حيث ان اعضاءه يعملون اسماً مع اعادة اعمار العراق بقيادة امريكية بينما يهاجموها و حلفاءها العراقيين من الخارج . و من وجهة نظر ( لويزارد) فإن الدعوة ، كما هو الحال مع الصدريين قد يدعمون بسهولة الكفاح المسلح ضد الامريكان . (٣٧)

لقد اعلنت احزاب المجلس الاعلى للثورة الاسلامية و الدعوة و الصدريين و مجموعات شيعية دينية اخرى اعلنوا جميعاً انهم يعملون تحت مباركة و ارشاد آية الله العظمى السيستاني . و هذا غير صحيح و لكن سياسات رجال الدين قد تصبح صعبة التنبؤ بالنسبة للسفارة الامريكية فى بغداد ، خصوصاً ان السيستاني من المرجح ان يستمر برفض الاتصال المباشر مع المسؤولين الامريكان . والاتصال غير المباشر مع



موعد استفتاء الدستور والانتخابات البرلمانية الوطنية - فإن اية الله العظمى قد يظهر لواشنطن كحامل لواء العداة المتزايد ضد الامريكان وضد عراق ايداع علاوي . ولكن ينبغي ان لا نتخوف من مناورة الامريكان بين الشيعة ولا ان نقلل من شأن السيستاني اذا ما رفض الدستور المؤقت المصادق عليه من قبل الامريكان او اعاق تشكيل حكومة عراقية جديدة وقد تسبب اجراءاته ارباكاً في الشارع للتظاهر بشكل واسع وقد يتحول الى اعمال عنف ولكنها بالتأكيد ستكشف ان رجل الدين هذا واتباعه ليسوا قطعة من نفس القماش لافكار الخميني . ان دور تاريخ الشيعة اليوم بيد اليستاني (وليس بيد الصدر) حيث يقود المؤمنين الى فهم ديمقراطى متزايد للاعراف والقيم الاسلامية .

### دور النجف في عالم التشيع

وبالتاكيد ، فإن زيارة اي امريكى للنجف ، مركز التشيع في العراق سوف تجعله يستنتج بشكل واضح ان مصير الولايات المتحدة هو بايدي أناس من القرون الوسطى . وقد يظهر تأريخ الشيعة مثل رحلة غربية مع القليل من اللمسات العصرية القادرة على ادامة الديمقراطية . وهذه النظرة ليست بالمجهولة لدى العديد من العراقيين حتى من الشيعة فهم الذين عاشوا في بغداد حيث يقسم الدين الى كونتونات . وإذا تجولت في المناطق التي تسود فيها الطبقات الوسطى للشيعة في الكرادة مثلاً، فستجد نساء شيعيات غير محجبات يمشين مع رفاقهن يداً بيد ونادراً ما نرى نظرات توتر وشد بين المسلمين وغير المؤمنين .

معالم الاعتدال واضحة . مع هذا ففي النجف يغمرك الايمان . اما بالنسبة لغير المؤمنين فتشعر بوطأة ثقله و رهبة ضيق الاماكن . تقع النجف على حافة الصحراء و تغذيها في العصور الحديثة قناة واحدة . و النجف هي ارض جافة مستوية و يمكن رؤية منازل ذات طابقين من الجص و الاسمنت تشكل معظم احياها التاريخية ، كما يمكن رؤية اشجار النخيل و الاعشاب و طين دجلة و الفرات . اما اثار حضارة بلاد ما بين النهرين فلا اثر لها . كما لم نرى سوق التوابل و البخور و السجاد و الجلود في المدينة ولم نسمع اثر للموسيقى الغربية و لا للعربية . و تباع للزائرين الحلي و الاجهزة و المستلزمات المنزلية و الملابس الرخيصة و القرآن و الكتب الدينية الاخرى و مستلزمات الحياة الاخرى حيث تشتري ثم تباع للزائرين للمكان المقدس او المواطنين و تستمر الحركة من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل و تعج الشوارع بالمشاة و السيارات و تعرف النجف " بقرية الفولفو " حيث اغرق صدام حسين المدينة بالسيارات نوع فولفو 240 خلال الحرب العراقية - الايرانية من عام ١٩٨٠ - ١٩٨٨ لشراء ولاء الشيعة الذين يشكلون السواد الاعظم من الجيش الذي يقوده رجال من السنة ، و الازدحام المروري في النجف هو عبارة عن ساحات خردة لسيارات الفولفو القديمة . و في كل مكان ومن خلال ضجيج المدينة تشم روائح الجنائز التي تتدفق على المدينة و ما بين القباب الذهبية لمركد الخليفة علي ، حيث يحمل المؤمنون موتاهم الاعزاء للتبرك و الوداع ، و حتى مقبرة

المدينة اللامتناهية حيث يدفن الآلاف من الشيعة المحظوظين منذ قرون طويلة، ثم تستمر زيارة هؤلاء الموتى لتكرر نفسها الى ما لانهاية .

و بعيدا عن الرائحة و الضجيج ، داخل مكتبة الامام علي " مبنى عصري من ثلاث طوابق داخل شارع ضيق ملتوي ذو منازل مصفوفة " حيث يدون تأريخ الشيعة ب ٦٠٠٠٠٠ من المجلدات و ١٥٠٠٠ عنوان ، فهي اكبر مكتبة دينية في العراق . و هي المجموعة الكبيرة الوحيدة التي لم يدمرها صدام حسين في انتفاضة ١٩٩١ . في المكتبة المليئة بالكتب من الطابق الارضي الى السقف يأخذ المكتبيون و رجال الدين الزائر في رحلة عبر التأريخ . بالاضافة الى الموتى يقدم الطلاب من جميع انحاء العالم الاسلامي الى النجف منذ القرن الحادي عشر عندما فتحت اول مدرسة دينية فيها . وعلى الرغم من انها لم تكن دائماً المركز البارز الوحيد لتعليم الشيعة - فهناك بجوارها كربلاء ، ومدينة سامراء العراقية نحو الشمال ، واصفهان عاصمة الدولة الصفوية الشاهنشاهية الفارسية ، وطهران وقريب منها (ري) القديمة و(قم) في طرق الصحراء الايرانية - وكل هذه المدن كانت تتنافس في وقت من الاوقات الزعامة . وكانت النجف دائماً المكان الروحي باعتبارها تحوي رفات علي بن ابي طالب آخر الخلفاء الاربعة للدولة الاسلامية - الذي اشرف على غزو المسلمين للشرق الادنى . والامام علي هو قريب النبي محمد وصهره ، ووالد شجرة عائلة الائمة الذين ينتمي المسلمون الشيعة اليهم والتشيع كما عُرف في البداية "شيعة علي

"أي "حزب علي" وعلي اكثر الائمة قدسية من آل بيت محمد عن طريق بنته فاطمة زوجة علي . أما السنة فقد اخذوا تسميتهم من (سنة النبي) أي (شريعة النبي) وهم حوالي ٨٥-٩٠% من المسلمين وهم يحترمون سلالة النبي بل ويجلونهم ولكنهم تبينوا شريعة خلفاء المسلمين ، والسلاطين ، والامراء وهم من يطلق عليهم بالوقت الحاضر ، القادة العسكريين ، و رؤساء الدول مدى الحياة ، بغض النظر عن العلاقة المباشرة بالنبي . منذ البداية كان السنة قد ارتبطوا بالدولة وواقع الحال و التعاون مع السلطة.

#### عقائد الشيعة

و التشيع ، رغم ذلك ، هو معتقد جرت مواجهته و محاربتة . و اول من حارب التشيع هم السنة الامويون في دمشق . حيث اضعفوا سلطة علي و قتلوا ابنه الحسين اكثر شهداء الشيعة مأساوية بالنسبة لهم ، و على ارض كربلاء عام ٦٨٠ . و كانت ثاني سلالة للسنة هي الدولة العباسية التي تسلمت السلطة في عام ٧٥٠ حيث لعبوا دوراً كبيراً في استقطاب العواطف الشيعية . وحالما تسلموا السلطة احتضنوا السنة بقوة في بغداد . وبحلول نهاية العصر الاسلامي التقليدي في القرن التاسع كان الشيعة ملوك الفلسفة و لم يقد ائمتهم بعد الخليفة علي ابن ابي طالب جيشاً ولم يحكموا ارضاً . و التشيع بدوره انشغل بإنقساماته العديدة و حركاته الصوفية . و ظهرت دولة شيعية هي " الفاطمية " في شمال افريقيا في القرن العاشر و حكموا مصر و اسسوا مدينة القاهرة و جعلوها مصدر قوة و حاضرة فكرية . و بإختصار فقد هدودوا

كانت هوية التشيع تتحدد و تتبين بشكل متزايد على يد المؤسسات التعليمية الدينية التي تمد المجتمع الشيعي بالشريعة التقليدية.

و مع مرور الزمن ، فإن شريحة صغيرة ممن ينتمون الى المذهب الاثنى عشري من ائمة النسب العلوي يعتقدون ان آخر الأئمة ( الاثنى عشر ) و هو الامام المهدي الذي " اختفى " في سنة ٨٧٤ قرب مدينة سامراء سوف يظهر في نهاية الزمان ( كالمسيح ) و تحولت سلطته الى اكثر رجال الدين اكتمالاً من الشيعة ، و نتيجة للسنوات التي قضوها في الدراسة و البحث في الشريعة الاسلامية فقد اصبحوا ، على الاقل ، في اعينهم ، و عيون المؤمنين " ممثلي الامام الغائب " .

إن الغربيين الذين نسوا معنى الرسالة المسيحية في عملهم لنشر الدين و الدفاع عن المعتقدات يجدون اليوم صعوبة لفهم و تفسير رجال الدين . ففي مدارس النجف يتعلم الطلاب و رجال الدين فيما يعرف " بالحوزة " مناهج تقليدية مشابهة لتعاليم الاثنيية التي كانت تدرس في الجامعات الاوربية في العصور الوسطى ، و سواء اكان اتباع منهج المدرسة الدينية الخمينية او ممن هم اكثر نفوراً من السياسة ممن ينتظرون ظهور المسيح فإن علماء الدين الشيعة يدركون ان لديهم معرفة كافية بالشريعة المقدسة مما يؤهلهم لحل اكثر المسائل الاخلاقية للمؤمنين و قد نذروا حياتهم حتى يكونوا وسطاء بين الله و الانسان . وقد قادني ، عز الدين الحكيم ، الابن الاصغر لآية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم ، قادني عبر ازقة النجف الضيقة المتلوية الى منزل منفي الخميني . و كان

الدولة العباسية بجيوش حاشدة حتى جاء صلاح الدين ، العدو السني لريشارد قلب الاسد حيث قام بالقضاء على الفاطميين . كما ظهر مع الفاطميين (الاعتاليون ) الذين اوجدوا القتل السياسي المنظم لافراد من العالم المسيحي و الاسلامي . و هناك فرع آخر وهم الدروز في لبنان ثم هناك العلويون الذي يحكمون سوريا حالياً . كما كان هنالك الصفويون الذين حاولوا مزج الهوية الايرانية و اللغة مع التشيع و هددوا الامبراطورية العثمانية السنية بمجاهدين صوفيين لا يعرفون الخوف . و بنوا اجمل المدن الاسلامية ، و بالتاكيد اكثرها رفاهية في العالم الاسلامي .

كما انتج التشيع ، من ناحية اخرى ، البهائية و ذلك في القرن التاسع عشر و التي كان ينظر اليها من قبل اتباعها ، و المسلمون باعتبارها ديناً جديداً و ليس طائفة متفرعة . و قد حاول جميع رجال الدين الثوريون الكبار في القرن العشرين - مثل روح الله الخميني - و محمد باقر الصدر و محمد حسين فضل الله في لبنان - ان يحولوا التشيع الى معتقد للمنتصرين ، و ذلك لجعل الشيعة يتصرفون كالسنة . ان شهادة ( الحسين بن علي ) الذي - سار مع القليل من اصحابه لمحاربة الامويين ، نحو موت محقق اصبح لهذه الاسباب رمزاً للمعارضة الثورية . وهو في هذه لايشبه شخص المسيح حيث تعلمنا ان في الموت فضيلة التضحية و قبح التسلط السياسي ، ولكن التشيع التقليدي لم تتح له فرصة التمتع بمجد امبراطورياته و لابرجاله المقدسين الذين كانوا يتصرفون كالأمراء . بل كانت دائماً في القلب لوعه من قياصرة زمانهم. و مع هذا فقد

فإن المسلمين السنة لم يغفلوا عن اعتقاد الخميني " بالامام الغائب " و كذلك تسمية نفسه وسلطته ( كان الخميني يسمي نفسه دائماً بالامام في ايران ) و هي سلطة عليا غيبية . و مازال الانقسام الحاد في الحضارة الاسلامية بين السنة و الشيعة المنتشرين حالياً في كل من ايران و العراق و لبنان بكثافة .

" كان الخميني رجل عظيم " قال عز الدين : " لقد انتصر على الشاه الذي لم يكن جيداً مع شعبه . و لكن الخميني قد مضى ، و طريقه هو ليس مستقبل العراق " ( ٣٨ ) . و قد ذكر الشيخ محمد الخاقاني ، و هو رجل دين مقرب من السيستاني هذا الكلام بصيغة اخرى " نريد حكومة غير اسلامية و لكنها تحترم الاسلام " . و قد دعاني الخاقاني و هو معلم محترم في النجف من أصول إيرانية، و كان سعيداً أن يقود غريباً في أنحاء مدرسته الدينية النظيفة ذات الطابقيين . كانت دعوة الخاقاني لي مع عدد من رجال الدين العراقيين و الايرانيين لمأدبة تحتوي على لحم الغنم و الدجاج و سمك النهر " هناك نقاش حاد حول الجمهورية الاسلامية و فكرة الاسلام في العراق ، بعد سقوط صدام ، هناك رغبة متزايدة نحو الاسلام . لن نكون كتركيا فالجمهورية التركية كانت عدوانية تجاه الاسلام . و على كل حال فالقليل من الناس من يريد ان يرى ثورة اسلامية على غرار ولاية الفقيه ( حكم المراجع الدينية ) و لا توجد هناك رغبة في استنساخ الجمهورية الاسلامية ( ٣٩ ) .

و بعد أن أزعجتني باسئلتني حول الخميني في العراق اوضح مرة اخرى " : إذا كنت تريد

منزلاً قديماً خشبياً غير مطلي ذو نوافذ صغيرة . و لحد الان ، لم يذهب الزائرون الايرانيون للعتبات المقدسة في كل من كربلاء و النجف و الذين وفدوا بأعداد كبيرة بعد سقوط صدام الى هذا المكان الذي كان مقراً لاقامة الخميني سابقاً .

### آية الله الخميني

لقد عاش الخميني في النجف للفترة من ١٩٦٤ حتى ١٩٧٨ ، عندما طلب الشاه من صدام حسين طرد الخميني من البلاد و كان طلباً غير حكيماً . النجف قريبة جداً لنفس محمد رضا بهلوي الذي خشي من عبور شبكات المناصرين ورجال الدين من ايران عبر الحدود . وفي ضواحي باريس بعد التحرر من سلطة الحكومة العراقية الضاغطة قام الخميني واتباعه بالبدا بحملة مناوئة للشاه عن طريق الراديو و الاشرطة و التلفون و الفاكس .

و على كل حال ففي النجف اكمل الخميني نظريته السياسية و هي نظرية دولة اسلامية يقودها رجال الدين ، وكانت افكاراً مبهرة حولت المركز المميز لرجال الدين الشيعة الى طلائع منظمة تحت الجماهير على الخروج الى الشوارع و رغم ان الخميني كان يأمل ان تنتشر الثورة الاسلامية عبر الشرق الاوسط فإن العرب السنة لم تجذبهم دعوتهم برفع السلاح في وجه الانظمة الملكية الدكتاتورية التي تسندها الولايات المتحدة الامريكية .

و على الرغم من ان منظمة الاخوان المسلمين ، اكبر منظمة سنية متطرفة و هي ام لكل الحركات الاصولية التي تحلم بتغيير الانظمة الحاكمة منذ عقود قد انبهرت بنجاح الخميني

القيام بدراسة تأريخ الخميني في النجف فأنت حر ، كتاباته متوفرة هنا وإذا ماتمكنت من العثور على اتباع للخميني فأنت حر في متابعة هذه الدراسة معهم . ولكن اذا اصبح الطالب مشغولاً جداً بالشؤون الاجتماعية - مثلاً في شؤون مقتدى الصدر - فإن مثل هذا التلميذ سوف لن يجد الوقت الكافي لمتابعة منهجه الدراسي فينبغي عليه المغادرة (٤٠) وأشار رجال الدين الايرانيون بجائبي برؤوسهم مؤكداً على ذلك .

وعز الدين والخاقاني هما مثالان جيدان من رجال الدين الشيعة في العراق وكلا الرجلين يبدو انهما مخلصين ومحترمين على الرغم من انهما ليسا من المعلمين الاكثر شهرة في النجف . وقد قام الخميني بما حلم به العديد من رجال الدين عبر قرون . فلقد اسقط طاغية . وقد ناقش كلاً من المتدينين الشيعة والسنة بصورة دائمة فكرة الحكم الشرعي . وكان النقاش عاماً . لان الواقع غالباً ما يفشل ابسط التوقعات . ولا يتردد العراقيون والاييرانيون في العراق من مناقشة اخطاء الخميني الرهيبة . وقد اظهرت الجمهورية الاسلامية ان الملك يمكن ان يستدعى للمحاسبة أي ان الجميع سواء اكانوا من اصل نبيل او وضيع، ينبغي ان يعيشوا وفق نفس القانون . ان فكرة العدالة كانت مرنة ومطاطة على مدى التأريخ الاسلامي . وقد يكون الخميني نفسه قد اصبح طاغية وخان تعاليمه الخاصة ليعيش فوق القانون ، وقد عدل عن العدل لوهلة من الزمن هكذا هو في عيون خصومه السياسيين من رجال الدين الذين لم يستجيبوا لخطاباته وتعاليمه .

ومن خلال التعليقات التي كثيراً ما كنت اسمعها من المجتمع الشيعي عن الخميني ثبت لي ان مجتمع رجال الدين في العراق لم يتعرضوا للضياع خلال الفترة المظلمة من حكم صدام حسين ، وحتى قبل مقتل آية الله محمد باقر الصدر في نيسان ١٩٨٠ فإن النظام البعثي قد عمل لعزل المؤسسات الدينية للشيعية والسيطرة عليها نفسياً . وبعد وفاة الصدر وبداية الحرب العراقية الايرانية ، تم نشر جيوش من الجواسيس في العتبات الشيعية المقدسة التي هي بوابة الطريق الى الجنة بالنسبة لهم . وربما كانت النسبة اكبر وأوسع . كما كان رجال الدين متعاونين مع النظام كذلك . وكانت النجف قد توقفت تقريباً عن العمل كمركز ديني بعدما كانت تنتشر فيها تسعة عشر مدرسة دينية تعمل منذ بداية القرن العشرين وكانت توصف ب "المستلمة لكافة اخبار العالم " لكنها ارتدت الى الخلف بل وغالباً ما توقفت عن وظيفتها هذه واضحت المكتبات المشهورة والعريقة على طول شارع المتنبى تراقب وتفتش . كما كانت تنقلات رجال الدين وتحركاتهم خارج البلد واتصالاتهم تحت الرقابة المشددة من قبل النظام . وحتى الروابط المتينة والدائمة بين النجف وقم و طهران كانت قد انقطعت خلال تلك الفترة .

ولكن من الناحية السياسية فإن معظم رجال الدين العراقيين لا يبدون من حيث اعتقادهم الديني رجعيين . وهم غير مندفعين لتحقيق انماطهم الثورية ، بدفع انماط الخميني الى الامام او تحسينها ولا انماط نظيره الأكثر عقلانية العراقي محمد باقر الصدر الذي

يكن لا مفر منه ، مع انتشار الفكر الشيعي القائل بأن العلماء وبسبب عقود من طلب العلم ينبغي ان ينصحو الملوك ورؤساء الوزارات حول اخلاقية وقانونية الوسائل المتبعة لدعم الشريعة المقدسة الذي تملكه السلطة على الحاكم والحكومة .

#### الثورة الدستورية في إيران

كبار العلماء التقليديون في القرن العشرين، الإيرانيون: عبد الكريم الحائري اليزدي، ومحمد حسين البروجردي وكاظم شريعتمداري، أو العراقي أبو القاسم الخوئي الذين من المحتمل أن يكونوا قد أنتجوا رجال دين أكثر من غيرهم من علماء الشيعة في القرن العشرين، هؤلاء جميعاً لا يحبذون خلط الدين بالسياسة. وعلى أي حال، فإنه من غير الواضح فيما إذا عاش هؤلاء تحت ظل حكومات ديمقراطية قد يصبحون من النشطاء السياسيين أم لا؟ لحظة تكون الفكر الشيعي الحديث، هي الثورة الدستورية الإيرانية عام ١٩٠٥-١٩١١ ، التي قذفت برجال الدين الشيعة الى العصر الحديث. مع مجيء القرن العشرين تبلور نظام هرمي منظم من المجتهدين، الذين هم في مستوى عالي من رجال الدين ويستطيعون إصدار أحكام وآراء فقهية.

الآراء الحديثة للمفكرين الإسلاميين الشيعة والسنة أصبحت معروفة في المدارس الدينية. رجال مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ، الذين أحيوا الشعور الإسلامي من خلال دمج الإعتقادات الغربية في الوطنية، والتقدم مع الحب التقليدي والدفاع عن الأمة، المجتمع الذي لا يعرف الحدود بين المسلمين.

شكلت كتبه ( فلسفتنا ) و ( اقتصادنا ) في الستينات اساس النهضة الشيعية . وفي النصف اليوم يسهل ايجاد كتب الصدر بقدر ما يسهل ايجاد اهم كتب الخميني ( الحكومة الاسلامية ) الذي جمع في الاصل من محاضرات آية الله في النجف في ١٩٧٠ ، او من كتيبات سياسية لخليفة الخميني الاقل اقتداراً علي الخامنئي . لم استطع ان اجد اي رجل دين دون الستين من العمر غير ملم بمؤلفات الصدر والخميني وسائر الشخصيات الاصولية الرئيسية .

وعلى العموم فإن رجل الدين اليوم ينظر الى المؤلفات العظيمة للفكر الشيعي على انها عفا عليها الزمن . انه المغزى الاساسي الثوري لكتاب فلسفتنا وان الاسلام نظام ايديولوجي مكثف بذاته ينبذ كلا من الشيوعية والرأسمالية بوصفهما ايديولوجيتين غير شبيهتين تستند الى المادية الملحدة . وطريقة الصدر ذات الطريق الثالث التي يوازها الكثير من الناشطين السنة المؤثرين التي جعلها الخميني بعد ذلك شهيرة في خطابه الثوري ( لا شرقية ولا غربية ) . يبدو انه ليس لها اليوم من يتبعها جدياً من بين الشيعة العراقية إلا بين الاقلية من المليشيات التي نشأت في الداخل وعلى الاخص بين الصدريين والساخطين الذين ترعاهم ايران . ليس هذا عائداً الى السبب الذي يورده المنفيون العلمانيون وهو ان رجال الدين العراقيين يتبعون اكثر التقاليد دهاءاً وينظرون الى السياسة بوصفها تلوث ينبغي اجتنابه . وقد عمل الكثير حول الطبيعة السياسية المعارضة لرجال الدين الشيعة التقليديين . والانجاز الثوري للخميني بتحويل رجال الدين الى دكتاتورين سياسيين كان منطقياً ولكنه لم

ومن ثم أصبح الحكام المسلمون أكثر عرضة لإختبارات إنجازاتهم. كما أشار الباحث يتزاك نقاش في "شعبة العراق": زودت الثورة الدستورية في ايران عام ١٩٠٥-١٩١١ المجتهدين في كل من العراق وايران بتصور عن الشكل الذي يجب أن تكون عليه الحكومة الإسلامية.(٤١) وفي مقابل معارضة الشاه الإيراني، رأى المجتهدون أنفسهم وبشكل مثالي كهيئة إشرافية تراقب الحكومة العلمانية. يمكن أن تعتمد شرعية قرارات الملك على مباركة رجال الدين الكبار.

نشأ الخميني في مثل هكذا أجواء، وهكذا كان السيستاني. واليوم أكثر رجال الدين في العراق هم سياسيون.

بعد عقود من الإستبداد، أخذوا يعتقدون بأن دور رجال الدين يجب أن يكون إشرافياً ومراقباً للنظام السياسي لضمان عدم إبادتهم.

ولكن من الضروري فهم إن أفكار الشرعية السياسية والعدالة قد تغيرت. إنها وبشكل قاطع وغير قابل للرجعة قد تمت علمنتها. إن الحركة الدينية في العراق وايران التي كانت وراء ثورة عام ١٩٠٥-١٩١١ كانت تتظر الى الدستورية كطريقة لإحكام وتقوية القانون المقدس، الذي كان أعلى من الحاكم والمحكومين.

وفي المناقشات الدينية في ذلك الوقت لم يكن هنالك مجال واسع لرفض الافكار الديمقراطية ورجال الدين الذين كانوا يسعون للإطاحة بشاه ايران مظفر الدين لم يكونوا يريدون الإطاحة بالملكية. وتعطي المؤلفات الأشهر التي تسعى الى اخضاع المسيرة الدينية الى ثورة دستورية مثل كتاب محمد حسين نائيني (يقضة

المجتمع الاسلامي) و (تنقية العقيدة الاسلامية ( فكرة طيبة في محورية الاسلام والشريعة المقدسة لرجال الدين ذوي التوجه السياسي الدستوري. فلنقارن هذا بالفتوى الآتية من السيستاني التي تجنح الى الديمقراطية. هذه هي الفكرة التي تفسر بطء حركة الأمريكان في مرحلة ما بعد الحرب من حيث خططها التي قادت إدارة بوش في النهاية الى طلب مساعدة الامم المتحدة

### السيستاني والديمقراطية

إن سلطة الاحتلال ليست لها الصلاحية نهائياً لاختيار أعضاء لجنة مسودة للقانون الاساسي. وهذه السلطة ينبغي الا يكون لها وجود على الاطلاق في مثل هذه اللجنة المختصة بتمثيل المصالح العليا للشعب العراقي أو لترجمتها في قانون يتضمن رغبات الشعب العراقي والهوية الاساسية للشعب العراقي، والتي من أهمها الشريعة الاسلامية السمحاء والقيم الاجتماعية. إن الخطة (الامريكية) الراهنة مرفوضة من الاساس. وعلى هذا الاساس فمن الضروري إجراء إنتخابات عامة حتى يتسنى لكل عراقي في سن الإنتخاب أن يختار ممثله في لجنة الدستور. وحينذاك فان أي قانون أساسي تضعه اللجنة ينبغي ان يتم قبوله في إستفتاء شعبي. ان من واجب كافة المؤمنين وبالترام كامل أن يطالبوا بذلك، وان التاكيد من إنتهاج هذا الطريق هو الطريقة المثلى التي يستطيعون فيها المشاركة في هذه العملية.(٤٢)

في تاريخ الاسلام، تعتبر مثل هذه الفكرة خياراً ثورياً معادلةً لتأكيد الخميني على هيمنة رجال الدين. وهناك إشارة صغيرة حول مثل

حتى افرغوا الدستور الايراني الذي كانت قد اعدته نخبة من الليبراليين المؤيدين للثورة ، من اي التزام له قيمة بالديمقراطية ، وفكرة ان لكل ايراني حق في انتخاب ممثله بما يتفق مع الدستور نبذت بوصفها مؤامرة ضد الاسلام .

وعلى الرغم من ان الكثيرين من المراقبين الغربيين يرون في آية الله السيستاني وبروز قوته وجهاً لوجه تجاه قوة سلطة التحالف المؤقت هي بداية دولة عراقية دينية ، ان مثل هذا الفهم لا معنى له . لقد فعل السيستاني ما كان رجال الدين في ايران المؤيدين للملكية يحملون بأن يفعلوه . لقد اخذ اهم مطلب في التاريخ الاسلامي ( الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ) ، واشتقه من الشريعة المقدسة . هذه الوصية بشكل او بآخر وردت في القرآن ثمان مرات . (٤٤)

بالنسبة للمليشيات الاسلامية الحالية فإن هذه الوصية هي صرخة الحرب وتبرير كما هي لشرطة الاخلاق في السعودية ، وشرطة ايران وطالبان في افغانستان وعصابات الشباب الذين يؤذون النساء المسلمات اللواتي لا يرتدين الزي ( الصحيح ) في بغداد وفي مرسيلا ونادراً ما حاول المسلمون التقدميون ان يغيروا من هذه العقيدة ، التي عرفت دائماً في التاريخ الاسلامي على انها وسيلة لضبط الفساد والشهوة في النفس البشرية في محيط من الحرية السياسية . وعلى الرغم من ان السيستاني ورجال الدين التقليديون ليسوا ليبراليين لأنهم يقومون بتحويل العقيدة الدينية الى استقطاب جديد فيه نظام ديمقراطي يحميها . وعندما سألت عز الدين عما اذا كان هو وابوه آية الله العظمى الحكيم وسائر المنظومة الدينية يعدون

هذا الحكم صدرت في ٢٨ حزيران ٢٠٠٣ ، الى الاسلام وما يشير فيه الى كبار رجال الدين (المراجع) الذين كرسوا حياتهم لدراسة الشريعة الاسلامية وما له من سلطة شكلية ؟ وهو لايتي بأية رؤية لأي واجبات يدين فيها الانسان الله (حقوق الله) وهو المغزى المشترك لكل من الافكار التقليدية والحديثة للاصوليين. ويتحدث السيستاني حول الحقوق التي لايمكن تغييبها للمسلمين . وفي الاصل فهي اعتماد مبادا شخص واحد صوت واحد وما تفرضه الاخلاق من ان الدستور ينبغي كتابته من قبل ممثلين منتخبين ومن ثم يتم إقراره من قبل الشعب بموجب إستفتاء عام . والفتوى تتسم بالعلمانية التامة وتنص على أن يكون الشعب هو المصادق السياسي النهائي عليه . وتثير فكرة السيستاني الاستغراب بمقارنتها بتصريحات الخميني المناهضة للديمقراطية واعماله قبل الثورة وبعدها . وقد وصف المؤرخ في جامعة برنستون كارل براون رؤية الخميني بأنها تزوج بين المفاهيم القرآنية التي تنص على إله واحد ورجال دين متفردين .

إن جدول الاعمال السياسي يمكن وصفه بسهولة : فالاسلام يمثل نظاماً اجتماعياً - سياسياً شاملاً لكل زمان ومكان . ولذا فان الله هو المشرع الوحيد والحكومة مفوضة بتطبيق إرادة الله في هذا العالم . ان الخط الوحيد المقبول لهذه الحكومة الاسلامية هو أن يقودها افضل رجال الدين علماً . هذه هي ولاية الفقيه . ولهذا فان الملكية أو أي نوع آخر من الحكومة غير مقبول (٤٣) . ما أن وصل الخميني وأتباعه من رجال الدين الى السلطة



الديمقراطية (معروفاً) ، اجاب (تماماً انه من حق المسلمين ان يعيشوا في مجتمع ديمقراطى والمسلمون سواء اكانوا احياناً ام اشراراً فإن من حقهم التصويت ) . (٤٥)

وبطبيعة الحال فإن عز الدين كان عارفاً من ان "المسلمين الجيدين" سيحققون النصر في صناديق الاقتراع ولم يكن له شك في ان طغيان صدام حسين قد ادى الى جعل العراق بلداً اكثر تديناً ولم تستطع اطالة الكلام مع رجال الدين الشيعة في العراق دون ان تأتي على ذكر (الخطوط الحمراء) وهي المحددات المسموح بها في السلوك الديمقراطى وفي العراق اليوم ليس لرجال الدين نظرة واضحة حول كيفية تقاطع الديمقراطية مع المذهب الشيعى، ولكنهم لا يمارسون (التقية) العادة الشيعية القديمة وهي انكار الحق امام الغرباء والاقوياء . انهم فقط يحاولون ان يفهموا نتيجة صوت واحد لشخص واحد بوصفها المصدق الاول والاخير على الحماسة السياسية ويعرف رجال الدين العراقيين (التقليديين) ان هذا يقع خارج الشريعة المدونة . عندما يقوم مهندسوا التحول الديمقراطى بعملهم فلا شك ان العلماء سوف يقلقهم ما هو (ضد الاسلام) و (ضد الشيعة) من الخطوات في دستور دائم . ولكن المثير للانتباه حول مناقشات رجال الدين للخطوط الحمراء للديمقراطية هو انهم افراداً وجماعات لا يعلمون بصورة واضحة ماهى هذه الخطوط . وفي محاولة لوصف هذه الخطوط فإن رجال الدين يجنحون الى التحدث عن الاخلاق ولكنهم ليسوا واثقين من ان اي من هذه الاخلاق ينبغى ان لاتكون عرضة للجدال العلني ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر اتفق علماء الدين

السنة والشيعة على ان مناهضة بريطانيا العظمى للرق امر منافي للعقل وعدواني ، لأن الله في القرآن قد أباح ذلك للمؤمنين ، وجعل بإمكانهم بموجب الشريعة استرقاق النساء والرجال في الجماعات التي تخسر الحرب او الغزو (٤٦) وكان الجنود العبيد جزءاً مهماً وناجحاً وموضع فخر للجيوش الاسلامية على مدى قرون ( المماليك في القاهرة والانكشارية في اسطنبول خير مثال على هذه النخب المحاربة ) . ولكن افكار المسلمين تبذلت حين لم تكن السفن الحربية البريطانية موجودة لتشجيع مثل هذا التبذل . وقاد ذلك المحدثون المسلمون ثم تبعهم رجال الدين التقليديون في النهاية بإعلان ان العبودية لا تتفق مع الاسلام : قد يكون بعض السعوديين والسودانيين والموريتانيين يحملون بإسترقاق الكفرة ، ولكن من الممكن القول ان المسلمين الآن يحسبون الاسترقاق امراً عفا عليه الزمن على الرغم من ماضيه المتعلق بالعقيدة انه الاحساس الحديث طغى على الشريعة (ويمكن ان يقول المؤمنون ان الوقت الطويل سمح للمؤمنين من مخالفة القرآن لصالح الحرية) والافكار الغربية بما فيها الديمقراطية صارت تجري في دماء المفكرين المسلمين منذ غزو نابليون لمصر في عام ١٧٩٨ . وكان ذلك قبل اعلان بريطانيا ان تجارة العبيد تعتبر جريمة دولية بتسع سنوات (٤٧) ان جدية الجدل حول الديمقراطية ، ضدها او لصالحها زادت مع مرور الوقت والكثيرون من المسلمين قد اغرثهم الطرق الغربية او انهم تعرضوا لها . الاشتراكية ، الاشتراكية القومية والشيوعية هي جميعاً كانت لها ايامها في الشرق الاوسط . والديمقراطية

انها تبدلت في غضون القرون . ان الفكرة السياسية الوحيدة التي تحرز الموافقة السريعة بين صفوف المتدينين التقليديين هي ان القرآن والحديث والامام علي ينبغي ان تكون مصادر للقوانين الدستورية والبرلمانية . والتقليديون على اي حال ، لا يريدون ان تكون الشريعة هي المصدر للتشريع المستقبلي وكما هي حالة التقدميين الأيرانيين من رجال الدين ( وهم ما زالوا بدون سلطة ) ، فإن ما يثير الانتباه بشأن معظم العلماء العراقيين هو انتقائيتهم الفلسفية والقانونية . يقول الشيخ خاقاني ( ليست كل التقاليد الغربية جيدة او سيئة ولا كل التقاليد الإسلامية جيدة او سيئة ، في كل من الطرفين هناك شيء يمكن استعماله ) . وعلى النقيض من ذلك فإن عدداً من اتباع حزب الدعوة والصدريين لا يتقبلون اي شيء غير موسى به من قبل الشريعة . ويلخص الشيخ حليم الفتلاوي وهو رجل دين في الخامسة والثلاثين في مسجد الحكمة في بغداد في مدينة الصدر ، الفرق بين المقاتلين والمعتدلين فيقول ( انهم ( المعتدلين ) يعتقدون ان ايران اصبحت في وضع افضل تحت حكم خاتمي ( الرئيس المعتدل الايراني ) وانا اعتقد ان السنوات الاولى في ايران كانت هي الافضل ) . (٤٨) .

في المنطقة الرمادية الواسعة المحيطة بالخطوط الحمراء يكمن التسامح والتعددية السياسية بين رجال الدين وسائر افراد الطائفة الشيعية في العراق . وبدون التسامح والموافقة على الاختلاف بحدود معينة فإن الديمقراطية مستحيلة ، ومن حيث التعريف فإن التوحيد له تأثير قوى مضاد للديمقراطية ، والتزاوج الاسلامى بين الدين والدولة كان اكثر نجاحاً من

التي هي اقدم افكار الغرب السياسية واكثرها جاذبية ( وعلى وجه الخصوص عندما حطمتها افكار غربية اخرى ووسعت قدرة الطغيان الحكومي ) ، هي اليوم جزء لا يتجزأ من التغيير الثقافي ان لم نقل السياسي للمسلمين في الشرق الاوسط وهي الجزء المؤثر من المنشورات العربية التي تنتشر في اوروبا . المراقبون الذين لا يعلمون الكثير عن مجموعة قوانين الشريعة الاسلامية المعنية بوجود التمسك بها ( الشريعة الاسلامية هنا شديدة الشبه بالتقاليد اليهودية التلمودية يمكن الرجوع الى موقع السيستاني على الانترنت ( www.sistani.org ) للتأكد من ان آية الله العظمى ومن مثله هم رجال دين طقوسيون يستحيل ان يكونوا قادرين على المساعدة على ولادة دولة ديمقراطية حديثة . المراقب الغربي يبدو له افراطاً في الجنون ان يعتقد ان مجتهداً دينياً يكتب عما اذا كان يحل للأنسان ام لا يحل ان يأكل لحم حيوان مارس معه اتصالاً جنسياً يمكن ان يكون قوة دافعة من اجل اقامة حكومة ممثلة للشعب . ولكن في الميدان الديني فإن هذين الموقفين لا يتعارضان . ان مناقشة تحديد الاطعمة او حرية النساء في اختيار ملابسهن بالنسبة للشريعة تقع ضمن تصنيفات قانونية فيها وصفات الشريعة المقدسة لم تتعارض ( حتى الان ) مع الخبرات السياسية والمناقشة الفلسفية العميقة .

هذا هو بالضبط السبب في ان فتوى السيستاني ومناقشات رجال الدين العراقيين للديمقراطية تعد بالكثير . لقد ابتعدوا كثيراً عن الموقف الديني المحض وعن التقاليد الى درجة تفوق ابتعادهم عن المسائل غير السياسية التي لا بد

المجتمع الاسلامي له نوع من أنواع التكامل الاخلاقي ينبع من الاتصال المباشر لهم بالله . وهنا تقول السيرة النبوية ( لا تجتمع امتي على ضلال ) ، وقبول المؤمنين للقرآن بوصفه كلمة الله ، والحديث وتفسيرات كبار المفكرين المسلمين تعتمد على كون المسلمين هم العاملون المستقلون الاخلاقيون الذين يرون حقيقة الاسلام طوعاً ويرون تفوقه على سائر الاديان .

والمسلمون الليبراليون المتأثرون بالغرب الى حد بعيد ومحدثوا الاسلام - المسلمون المخلصون الذين يرمون الى المزوجة بين ابداع العبقرية الغربية وتقاليد الاسلام وقيمه - طالما حلموا باستخدام مبدأ الاجماع في المناقشة حول الديمقراطية - ولم ينجح ذلك في ايديهم حيث ان الآخرين وجدهم كما وجدوا هم انفسهم خارج المسيرة الاسلامية . ولا ينطبق ذلك على السيستاني ورجال الدين في النجف الذين هم بقايا التقاليد ولو ان السيستاني وآية الله العظمى الحكيم ورجال الدين التقليديين تمسكوا بالتطرف مثل الصديريين فسيصبح من الصعوبة بمكان لسائر قوى الشيعة في المستقبل ، ولزعماء الشيعة المقاتلين الذين يقودون الجيش الشيعي انشاء نظام ديمقراطي تسانده اكثر اصوات الطائفة . وخلافاً للإعتقاد الشائع ، فإن الشيعة العلمانيين ، واولئك الذين ليسوا ذوي نزعات دينية ، هم من يحتمل ان يكونوا التهديد البعيد الامد لتطور نظام ديمقراطي قادر على الحياة والاستمرار في العراق . ورجال الدين التقليديون واعون للمخاطر داخل البلاد وخارجها . وقد قال السيد علي الواعظ وهو من رجال الدين الكبار في مرقد الكاظمية الذي هو واحد من اقدس المزارات في العراق

حالته في كل من المسيحية واليهودية ، ولكن نخبة ديمقراطية قد تشربها الوسط السياسي الشيعي . لقد رأوا المستقبل ويعود الفضل في ذلك الى الخميني الذي نحى جانباً الشريعة المقدسة من اجل ان يؤسس دولة اسلامية تحت هيمنته . وفي توجه شخصي من قبله من اجل ايجاد المؤمنين الكاملين استوعب بالقوة الشيعة جميعاً . ولقد دحض شرعياً ( وليس حقيقةً ) الحكم الديني مغلقاً فلسفياً مساراً من مسارات ثورة ١٩٠٥ - ١٩١١ في ايران . وقد ترك جانباً اعتقاد ان كل مواطن له حق لا يمكن تخييبه لقبول نظام الحكم في بلاده ( اخضع الخميني فكرة الجمهورية الاسلامية الى حركة الصعود والهبوط في تصويت ١٩٧٩ ، والانتخابات المنتظمة التي لها بعض صفات المنافسة ووجد انها ضرورية من الناحية الاخلاقية المناسبة لوجهة نظر النظام حول شرعيته ، وهو شيء لا يشبه اطلاقاً حالة الرئيس حسني مبارك في دكتاتوريته في مصر ) ويقوم السيستاني ورجال الدين في النجف الآن بالبناء فوق الانجازات غير المقصودة للخميني مؤدية الى تقدم فكرة ان كل مسلم له الحق في تقرير طبيعة الحكومة التي تحكمه . وكان كابوس صدام حسين يجعلهم يحثون الخطى في هذا الاتجاه دون شك . والعقيدة القديمة التي تنص على الاجماع الذي لا تشوبه شائبة والتي تعني في مجموعة القوانين الشرعية اجماع ذوي الراي في جيل ما قد مالت الآن نحو الديمقراطية . ينبغي الآن ان يشترك الله مع الانسان في السيادة الشرعية . وعلى رجال الدين ان يتقاسموا احتكارهم الاخلاقي مع صندوق الاقتراع . في الاسلام التقليدي كان هناك فهم على الدوام ان

( الدين لله ولكن الحكومة ينبغى ان تكون للناس جميعاً ) (٥٠)

وبصرف النظر عن العنف السنوي المتفشي في العراق وبخاصة بين التكفيريين المتطرفين ، فمن الممكن ان نتغاضى عن حقيقة ان السنة ما زال بالامكان ان يحذوا حذوا الشيعة مهما كان تكوهم في ذلك وعلى الرغم من ان العرب السنة ذوي هوية تتصل بالهيمنة السياسية - السنة حكموا العراق منذ تأسيس الملكية الهاشمية في ١٩٢١ ، والعثمانيين اعتبروا بلاد الرافدين قسماً سنياً من مملكتهم لعدة قرون - فان العرب السنة اليوم اقل بكثير من ( الجانب الاخر ) .

ان الزخم فى المجتمع العراقى اليوم قد تحول الى جانب الشيعة . آية الله السيستاني قد تعرض للأذى من جانب الصدر ولم يحصل على ما ينبغى من التوقير من رئيس الوزراء علاوي ، إلا انه يدعى لنفسه قوة تحصيل حاصل لإصدار نقض على اعمال حكومة عراقية غير منتخبة وعلى السفارة الامريكية ( على سبيل المثال حتى اذا اراد علاوي ، فإن لم يكن ليستطيع منع مباحثات السيستاني مع الصدر حول النجف في آب ٢٠٠٤ ) . وحتى لو توفى السيستاني فإن الحوزة ستبقى قوة اكثر تأثيراً من اي رابطة لرجال الدين السنة . ويعلق كل من العرب السنة والشيعة دائماً حول قلة حوادث الانتقام منذ سقوط صدام حسين على الرغم من ان الانتقام من الاذى الذي يلحق بالناس من الغير جزء من ثقافة العراقيين المتواصلة . يعتقد السفير هوران الذي عرف العراق منذ منتصف الخمسينات ان قلة حوادث الانتقام مثيرة للدهشة (٥١) . من الناحية الثقافية فإن الطائفتين متقاربتين جدا ، وبينهما تبادل قوي فى الزواج ، ولكنهما من

( اننا نحتاج الى الامريكان ولكن الامريكان يحتاجون الينا كذلك فإن الديمقراطية فى الشرق الاوسط مستحيلة بدوننا ) . وهو يرتدي البياض وضعيف ان لم يكن يحتضر بسبب ثلاثة وعشرين عاماً من الاعتقال ، وهو ابن حفيد آية الله العظمى الواعظ وقد تبسم تبسماً باهتاً وهو يحاول ان يجلس في فراشه وقال ( نحن نريد الديمقراطية هذه المرة ، ونحن نريد قوات التحالف ان ترحل بسلام ) وهو غير قلق حول امكانية حدوث تمرد شيعي يستحوذ على السلطة ويقول نحن جميعاً وكلاء للسيستاني ، وهو مصدر تقليدنا . هو فقيه ديني اخلاقي وهو يريد منا ان نعيش حياة دينية ، ولكنه لا يريد من الدين ان يملى السياسة . فى العراق ينبغى ان نحصل على الديمقراطية وليس على الثورة ) . (٤٩) .

### السنة

هل هناك موازٍ سني للتبدل الحاصل بين الشيعة ؟ فى العراق من السهل العثور على عرب سنة يرغبون فى ان يروا انتصاراً للديمقراطية فى العراق ، واذا لم يكن ذلك بسبب آخر ، فبسبب خشية ظهور دكتاتورية شيعية يظهر توجه السنة لإعتناق نوع من النظام الديمقراطى . وقد قال ذلك السيد جاسم كناس وهو سني كبير السن فى بلدة سامراء وهو يشرح وجهة النظر السنية حول حكومة شاملة التمثيل . وهو يعتقد ان الديمقراطية ينبغى ان تتطوي على العروبة والاسلام والسلامة الشخصية ، والارادة العامة ضرورية من اجل اعادة البناء الضرورى بعد طغيان صدام :

الناحية الجغرافية متباعدتان فمدينة البصرة ثانية مدن العراق تقع في أقصى الجنوب الشيعي ويبلغ عدد السنة فيها نحو ربع عدد سكانها وبغداد التي يضمن السنة إنها مدينتهم، فيها اليوم على أكثر تقدير أغلبية شيعية وما جاورها خليط من الطائفتين ولذلك فليس من المحتمل أن يكون هناك ما يغري السنة بإشعال نار حرب أهلية ضد الشيعة .

ولكن الديمقراطية في الشرق الاوسط كما هو واضح لن تنهض أو تسقط بموجب مشاركة السنة العراقيين السؤال المهم الرئيسي إذن هو هل باستطاعة الاسلام السني إعتناق المثل الديمقراطية؟ يمكن للديمقراطية أن تنتصر في العراق لأن الشيعة العراقيين يرغبون فيها . ولكن حكومتها التمثيلية إذا لم تنتشر لتشمل الدول السنية حيث يعيش ٨٥ - ٩٠% من المسلمين فإن الارتباط بين الدكتاتورية والاسلام المتطرف لن يتبدل كثيراً . والبنلادنية ، بعد كل ذلك هي ظاهرة سنوية . ولذا فهل تستطيع الديمقراطية بالعراق أن تحفز على ظهور حكومة تمثيلية في اي مكان آخر من العالم الاسلامي ؟ والأهم من ذلك هل هناك توازن واسع النطاق في الخبرة السياسية بين الشيعة والسنة ؟ نظراً لأن التطرف السني هو القوة الاجتماعية المهيمنة في اكثر انحاء الشرق الاوسط ، هل يمكن للديمقراطية أن تنعش إنتصار الأصوليين في صناديق الاقتراع ؟

لقد تبدلت الافكار السياسية للسنة المسلمين كثيراً في الوقت الحاضر ، والتي أرعبت الشرق الاوسط أكثر مما يمكن تصوره . لعدة قرون كانت الفكرة المهيمنة في العقل الاسلامي حول طبيعة الحكومة الشرعية، ولعل أفضل ما يعبر

عنها ، هو ما جاء في فكرة القاضي الشهير في القرن الثامن ابو يوسف ( إخشى الله وأطعه ، وإذا ما تسلط على حكمك عبد حبشي أفطس الأنف قليل العقل فأصغ اليه وأطعه ) (٥٢) . هذه الكلمات نفسها التي يقول بعض المسلمين انها تنسب الى النبي محمد يعاد استخدامها مراراً من قبل اعظم علماء الدين في القرون الوسطى ، مثل الغزالي ( توفي ١١١١ ) ، من أجل تبرير طاعة الحكام . وليس هناك شك في ان الحكام غير المنتخبين في الشرق الاوسط يحذون مقولة ابي يوسف لتقرير شريعتهم السياسية . وبالمقابل فإن الاسلاميين المتطرفين المعاصرين يلتزمون بطريقة أكثر هدوءاً ، وبالنسبة لهم فإن اعظم المفكرين هو القاضي ابن تيمية ( ١٢٦٣ - ١٣٢٨ ) الذي اعلن حرباً مقدسة ضد زعماء المغول الذين اعتنقوا الاسلام ولكنهم لم يلتزموا بالشرعية الاسلامية . وإبن تيمية هو حجر اساس المدرسة الحنبلية في الفقه الديني وفي سلوك السنة المسلمين ومن اشد متطرفي هذه المدرسة الوهابيون وهم العمود الفقري في الدولة السعودية الحديثة . وعلى الرغم من وجود خلافات قوية بين المتطرفين من المغرب الى اندونيسيا ، فإنهم متحدين فكراً حول مسائل معينة وحول مفكرين معينين . وفي رد فعل على التفوق الغربي الحديث على العالم الإسلامي بعد تدهور الامبراطورية العثمانية في نهاية القرن السابع عشر وغزو نابليون السهل لمصر بعد قرن من ذلك الزمن ، أخذ المسلمون يبحثون بجديّة عن جذور ضعفهم وقوة الغربيين . والمحدثون الاسلاميون وأكثر الجماعات تأثراً الذين ينتمون الى ما صار يسمى بالحركة السلفية حاولوا المزوجة بين الممارسات الغربية

يجري تكفيرهم من اجل حملهم (افكار مستوردة) هم أسوأ المذنبين .

هناك خط مستقيم وقصير ما بين هذه الافكار والجهاديين الذين يقطعون الحناجر ويقررون بطون النساء الحوامل المسلمات ( غير الطاهرات ) في الجزائر بعد ان قام النظام العسكري هناك بإلغاء فوز جبهة الانقاذ الاسلامية في انتخابات ١٩٩١ . هؤلاء الجهاديون هم جزء من حركة التكفير . والكفار بالنسبة لهؤلاء الناس يجب ان يموتوا . والقاعدة التابعة لأسامة بن لادن نبعت من التكفير واستندت اليه ، وعلى وجه الخصوص اولئك الذين جاؤوا من مصر مع أيمن الظواهري وهم تابعون لمنظمة الجهاد الاسلامى المصرى . ان العلاقة الفكرية لا يمكن انكارها بين مجمل الاصوليين المسلمين وقد نبعت من الاخوان المسلمين بقيادة البناء والجماعة الاسلامية للمودودى التي تأسست في ١٩٤١ والمقاتلين الجهاديين الذين شنو هجمات ١١/٩ لى لادن . فالكثيرين من الناشطين الإسلاميين شجوا الارهاب . ولكن الجذور المشتركة تسمح لنا بأن نرى بصورة جزئية لماذا اصبح بن لادن محط اعجاب في كثير من انحاء العالم الاسلامى ، والاهم من ذلك فإنها تسمح لنا بأن نفهم كيف ينبغي محاربة البنلادنية من الداخل والخارج .

ان أمل الليبراليين والمحافظين الجدد فى ان المسلمين المعتدلين والعلمانيين الليبراليين يمكن ان يتنافسوا معاً لكي يهزموا الاصولية التى هي مصدر غنى للبن لادنية، وبعبارة ذات مفهوم غربى يجب تصور توساس جيفرسون دون مارتىن لوثر .

بما فيها حكومات افضل تمثيلاً وبين الجديد والإبداع في الغرب الذي لم يكن موجوداً ابان عهد تأسيس الاسلام . والمحدثون كما يبدو واضحاً يتبنون الممارسات والمعايير الغربية . ان مجرد فكرة الابداع ينطبق عليها ما يسمى بالعربية

( البدعة ) وهي مفردة قد تعنى الضلالة . والتشدد الاسلامى الذي هو من بقايا المدرسة الاسلامية القديمة الخلافة والمنافسة للأفكار الدينية النابضة بالحياة بقيت سائدة بالمدارس الاسلامية .

ولكن على جوانب النظام القديم نمت مدارس جديدة متأثرة بالافكار الغربية وضمت الاصوليين الحدائين ، وتحت ارشاد اناس مثل المصرى حسن البناء مؤسس الاخوان المسلمين في ١٩٢٨ من اكبر مناصريه المتقنين وتابعيه سيد قطب وابو الاعلى المودودى وهو من مواطنى الامبراطورية البريطانية السابقة في الهند ، وربما كان اكثر الاصوليين اهمية من حيث كونه مفكراً ناضجاً أخذ العمل العسكري الاسلامى هيئته على يديه . ومثلهم مثل السلفيين ، فقد اتخذ الاسلاميون الأصوليون منهج المجتمع الاسلامى في بلاد العرب بوصفه نموذجاً مثالياً وخلافاً لهم ولكن تطابقاً مع المسلمين السنة التقليديين فهم يرون شريعة مقدسة لا تبدل لها صالحة وقابلة للتطبيق في كل مجتمع . وهم يحاولون جعل المفهوم القرآنى للجاهلية مفهوماً صالحاً لكل زمان ومكان وان يوصف به المسلمون المعاصرون الذين لا يناضلون من اجل اعادة خلق المثل السامية للمجتمع الاسلامى . والمتفقون المسلمون الذين

مستوى الشارع للمليشيات الإسلامية في مصر (٥٤) . وهي تصف كيف ان النساء من الطبقات الوسطى والعليا اللواتي هن افضل وسط للتقدمية السياسية يتجهن اكثر فأكثر الى استخدام وسائل المتطرفين الاسلامية في الملبس وفي الكلام وفي العادات . قبل ٢٥ سنة كان زائر الجامعة الامريكية في القاهرة لا يرى بنات النخبة المصرية الجميلات متلفعات بالحجاب . واليوم فالنساء المحجبات فى كل مكان . لقد كان الملبس في المجتمعات الاسلامية مقياساً عظيماً من حيث الثقافة والسياسة . ويرضى الجيش الايراني بإرتداء اللباس العسكري الغربي لأنه اغراء القوة العسكرية الغربية لا يمكن مقاومته ان لم يكن سحرياً . الا إن ربطة العنق والالبسة التي تظهر وبشكل مغري اجزاء من الجسم محظورة . الاول غير ضروري ويمثل الذوق الشرقي الغير مرغوب ، اما الآخر فذو جذور قديمة جداً يتعلق بالمفاهيم الاسلامية والمرتبطة بالطهر الجنسي الذي يرى فيه اقل المسلمين شأناً أملاً في عالم يبعث على الفخر والسعادة. الحجاب في الجامعة الامريكية في مصر هو طريقة مؤدبة ولكنها طريقة فاضحة ايضاً وغير مستلزمة للعقوبة لإظهار الابتعاد عن اخلاقيات نظام مبارك العلمانية غير الصحيحة وغير الاخلاقية ، وعن التاريخ الحديث للبلاد .

وتنقل عبدو رأي المنشق الليبرالي سعد لدين ابراهيم : هناك تقارب بين الاصوليين الاسلاميين "الديمقراطيين الإسلاميين" والعلمانيين حول ضرورة وجود بديل انتخابي ديمقراطي لإستمرار الدكتاتورية بعد موت الرئيس مبارك ( الذي هو فى السادسة

في القرنين التاسع عشر والعشرين فشل الكثيرون من هؤلاء التقدميين لأنهم ابتعدوا كثيراً عن العادات والنزعات التي تعتقها مجتمعاتهم . وبالدرجة نفسها من الاهمية فإنهم من الناحية الثقافية والسياسية كانوا كثيرى الاقتباس من المسيحيين ( الاوربيين ) الأعداء قديمي العهد الذين غزوا في الأونة الاخيرة أكثر الشرق الاوسط . واليوم ليس هناك أي مكان في العالم العربي السني يتراجع فيه الفكر الأصولي . وفي الحقيقة فإن في مصر التي هي مركز القبول و الرفض في الوطن العربي تتعاضم قوى الجماعات الاصولية وتتنامى لتحل محل او لتذيب النزعة العلمانية التي كانت مهيمنة . ويقول سفير مصر في الولايات المتحدة الأديب والمتحدث نبيل فهمي ان البنلادنية هي حركة طارئة في الشرق الاوسط المسلم وبخاصة في بلدنا . وهو لا يرى أية علاقة بين طبيعة رئاسة حسني مبارك والاسلاميين المتطرفين (٥٣) . وبرغم ذلك فإن زيارة للسوق المركزي للكتب في القاهرة سيبري ان منشورات الاصوليين المتطرفين هناك تطغى على المنشورات المؤيدة للعروبة والمعتقدات القومية والليبرالية على الطريقة الغربية . ولا يصعب على المرء ان يرى افضل المؤلفات الكلاسيكية الغربية المترجمة الى العربية في مصر ، ولكن سوق هذه المؤلفات ضعيفة بالمقارنة بالشهية المفتوحة لشراء الكتب الاصولية المنقذة للغرب او المتعلقة بالدراسات القرآنية .

من الممكن ان تكون الصحفية الأمريكية جينيف عبدو، مؤلفة كتاب ( لا اله الا الله : مصر وانتصار الاسلام ) افضل مراقب على

مؤيدو حقوق المرأة . ويتضح من قرار إدارة بوش الإعتقاد بأن الانظمة الدكتاتورية التي ساندناها طويلاً مهما كانت مقبولة كان يمكن ان تتحرك سياسياً في الاتجاه الذي نريده بصورة افضل من المتطرفين المنتخبين الذين لا يؤمنون بالديمقراطية اصلاً .

ولكن ينبغي ان يكون واضحاً الآن ان حسابات واشنطن قبل ثلاث عشرة سنة كانت خاطئة . لقد بدأت الدكتاتورية الجزائرية في عام ١٩٦٢ عندما رحل الفرنسيون . لقد تبدلت الشخصيات والاحزاب ؛ والمكون المدني من النخبة الحاكمة صار اصغر حجماً ، ودورالعسكريين وتأثيرهم صار اكبر . وافتتاح السياسة الجزائرية - وهي لم تكن منفتحة حتى في العصر الذهبي بعد الاستقلال الذي بذل فيه البلد الكثير - اصبح في حالة اسوأ . ان التعطش للدماء الذي اندلع خلال حرب البلد القاسية ضد الفرنسيين وضد الجزائريين الفرنسيين الذي لم يتحول قط الى مجتمع مدني لما بعد الحرب طغى عليه الانتقام بعد ١٩٩١ . الجنرالات الجزائريون حضروا الأحزاب المتطرفة من المشاركة في الانتخابات وصارت الانتخابات تجري دون حماسة او تأثير في الجيش الذي استمر يحكم البلاد من خلف الكواليس . واقتمت القاعدة الشبكات الجزائرية في اوروبا الغربية التي شكلت اصلاً لدعم المقاتلين الاسلاميين في شمالي افريقيا. ان ظهور القاعدة وقدرتها على الحاق الاذى في اوربا الذي كان قاعدة انطلاق ١١-٩ ويحتمل انها ما زالت تؤيد ارهابيين اسلاميين وقادرين من الناحية العملية على مهاجمة البر الامريكى ، لم يكن ممكناً من

مركز الكاشف للمتابعة و الدراسات الاستراتيجية

والسبعين وبصحة ليست على ما يرام ) . وتعتقد عبود ان هناك اليوم حركات اسلامية معتدلة استطاعت تخفيف طرق بعض اعضاء الحرس القديم الذين يديرون شؤون الاخوان المسلمين وجعلهم يفهمون ان من الضروري شمول وجهات نظر متباينة ومصالح مختلفة في سبيل كسب ثقة المصريين الذين هم في النهاية من يقررون ما اذا كان الاسلاميون جديرون بالثقة التي تؤهلهم لقيادة البلاد . (٥٥) وما اذا كانت عبود محقة في كلامها حول نمو قوة الإسلاميين الديمقراطيين ام لا فهذا خارج نطاق بحثنا . ان على الولايات المتحدة ان تؤيد المسلمين السنة الأصوليين الذين يتنافسون في الانتخابات حتى ولو كانوا غير متأكدين من اخلاقياتهم . علينا ان لا نقع في الخطأ نفسه الذي وقعت فيه الولايات المتحدة وفرنسا خاصة في الجزائر عام ١٩٩١ حيث ساند كلا البلدين بقوة قرار الجيش بإلغاء نتائج الانتخابات وتقنيك الاحزاب السياسية الاسلامية . يقول ادوارد جريجان مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى في دفاعه عن ادارة بوش الأولى في خوفها من التطرف الاسلامي : شخصاً واحد ، صوت واحد ، وقت واحد ، اوضحت قلق واشنطن من احتمال ان تؤدي انتخابات حرة الى مجيء المتطرفين الإسلاميين الى السلطة لأنهم يستطيعون بمهارة ان يصبحوا ضد امريكا و ضد الديمقراطية . (٥٦)

ومع التسليم بهذا الاختيار فإن الافضل هو دكتاتورية مؤيدة لأمريكا . كان لهذا القرار تأييد كبير في الولايات المتحدة من قبل اليمين واليسار ، وكذلك في اوروبا . وقد ناصره



دون المقاتلين الجزائريين والشبكة التي ساعدوا على اقامتها في شمالي افريقيا. ان انتصاراً لجهة الانقاذ الاسلامي في انتخابات ١٩٩١ كان يمكن ان يحرف الحماسة والطاقة للإسلاميين الجزائريين المنفيين ، والمسلمين الفرنسيين وسائر المقاتلين العرب في شمال افريقيا الذين اعتنقوا طرقاتاً متطرفة في اواسط ونهايات عقد التسعينات .

فلنقارن الجزائر بجمهورية ايران الإسلامية . على الرغم من ان رجال الدين الذين يحكمون ايران قد نجحوا حتى الان في اعاقة الديمقراطية إلا انهم لم يستطيعوا ايقاف نمو الثقافة الديمقراطية . لقد علم علي خامنئي وعلي اكبر هاشمي رفسنجاني وهما القوى الدينية الحقيقية في البلاد ان محمد خاتمي عندما انتصر في الانتخابات بنسبة ٦٩ % فلأن التصويت كان على منهاج عمل إصلاحي يعتمد الشرعية الدينية في نظر الناس اكثر مما كانوا هم يعتمدون . ورجال الدين الحاكمون يعلمون - وصحافة الإصلاحيين عندما لا تغلق تذكرهم دوماً - بأن الانتخابات الحرة هي الاساس الوحيد للسلطة الشرعية في الجمهورية الإسلامية . في ١٩٧٩ كان لإيران الثورية ثقافة حرب مقدسة في اواسط الشباب . والشخصية الكارزمية للخميني كانت محبوبة عندهم بوصفه اماماً . والكثيرات من الايرانيات المناصرات لحقوق المرأة تلفعن بالحجاب وكان الشعار غير الرسمي ( الموت لأمریکا ) هو الشعار الوطني المعلن .

بعد ٢٦ سنة من سقوط الشاه انتهت سياسة ايران الجهادية . ولكن الماللي الحاكمين بكل

تأكيد لم يبارحوا استخدام الارهاب بوصفه وسيلة للحكم ، ولكن النظام الحاكم المتدين لم يعد يجد المؤيدين لعنفه الموجه ضد الامريكان . وعندما قدم الايرانيون المساعدة للذين فجررو الامريكان خارج بيروت في ١٩٨٣ ، بادرت صحافة طهران بمباركة الحدث . وعندما قدم الايرانيون المساعدة للذين فجررو ابراج الخبر في السعودية بشاحنة محملة بالمتفجرات في ١٩٩٦ فإن الصحف الايرانية لم تقابل الحدث بالبهجة ولا هي اعلنت عن مشاركة ايران فيه . وبعد ٩-١١ شهدت الجمهورية الإسلامية إعراباً عن الحزن الشعبي على الولايات المتحدة . يعتقد الباحث الفرنسي الجريء برنارد هوركيدي ، وقد صرف وقتاً طويلاً في مراقبة النزعات الثورية المحبطة في ايران ، ان الكثير من رجال فيالق الحرس الثوري الذين هم عماد قوة النخبة الدينية صوتوا لصالح خاتمي ١٩٩٧ وفي ٢٠٠١ (٥٧) . حتى رجال الحرس صاروا يعتقدون ان النظام القديم يجب ان تتوفر له شرعية شعبية من اجل ان يحيى . ان مناهضة امريكا هي القاسم المشترك بين البلدان العربية التي تحكمها دكتاتوريات موالية لأمريكا . وبالمقارنة تبدوا ايران بلداً موالياً لأمريكا . ومما لا شك فيه ، فإن على الرغم من ان جبهات القتال في الحرب العراقية الإيرانية قد انكثت نزعة الحرب المقدسة بين الشباب الايرانيين فإن جاذبية الاستشهاد التي اصبحت عامة بين الشباب الذكور حتى ١٩٨٦ - ١٩٨٧ اطالت زمن تأييد النظام الإسلامي الايراني ، لقد كان تركيز الشباب ينصب على الربط بين القتال والموت ، وليس على قلة كفاءة الحكومة

الدينية التي بدأت بشكل واسع بعد نهاية الحرب في ١٩٨٨ .

لو ان جبهة الخلاص الاسلامي كسبت انتخابات ١٩٩١ لبدأت ايدولوجيتها الأصولية الساذجة ( الاسلام لديه كل الاجوبة ) بالتفكك في وقت مبكر جداً . سواء كان ذلك الأفضل ام الاسوأ فإن المسلمين كانوا سيصبحون مسؤولين عن قدرهم ومصيرهم وهي الخطوة الرئيسية في منع ١١-٩ ونظريات التآمر الضارة التي تسمم السياسيين المسلمين وثقافة الناس من المغرب الى الباكستان . ولا يتمنى المرء السنوات السود للثورة الاسلامية الايرانية لأي بلد ، ولكن الخوف من ثورة اسلامية اخرى ساعد على الإصلاح السياسي في الشرق الاوسط وعلى تفكير امريكي في اصلاح افكار المتطرفين الإسلاميين . وهناك العديد من الأسباب التي تحمل على الاعتقاد بأن التحرك في صفوف المتطرفين السنة كان يمكن ان يكون اقل عنفاً ودموية مما كانت عليه الحال في ايران . ومن المحتمل ان يكون التكفيريون شريحة صغيرة من السنة المتطرفين ، اذ انهم يعتقدون ان اكثرية المسلمين قد يكونوا ( اشرارا ) . هؤلاء هم مقاتلون بشكل لاينطبق عليه حتى وصف الحرس القديم من الاخوان المسلمين .

ان ايمان السنة المسلمين في الجماعة وفي التكامل الأخلاقي للمسلمين بوصفهم اناساً ، النابع من الحديث الذي يؤكد عدم اجتماعهم على ضلالة ، هو ايمان قوي . وسيكون من الصعب على الاحزاب السياسية الإسلامية التي تصل الى السلطة من خلال صناديق الاقتراع ان تقيم العدالة بموجب الانتخابات .

وربما كان هذا هو السبب الأهم في ان الإسلاميين المتطرفين يحملون دوماً بانقلاب ، بالوصول الى السلطة كما فعل الخميني من الأعلى الى الأسفل . ان اخذ السلطة من الأسفل الى الأعلى بصورة ديمقراطية يأتي بفكرة ان كل مسلم هو فاعل اخلاقي يستطيع ان يجد الحق بنفسه . هذا المفهوم ليس غريباً على التاريخ الإسلامي مطلقاً ويمكن ان يكون قاعدة فلسفية لتقليد ديمقراطي جديد ينبثق في المجتمعات الإسلامية .

والمسلمون السنة ليس لديهم رهبة ، طليعة فلاسفة ملوك متميزون بصورة طبيعية . لقد كتب برنارد لويس ( ليس هناك اسلام بابوي ، وليس في التاريخ الإسلامي معادل للكاردينالات وولزي او رينشيليو او مازارين او البيروني ) ( ٥٨ ) . ولا يمكن ان يكون للسنة خميني . وحتى بين التكفيريين هناك بحث نشيط من القرآن والسنة وكتابات الفقهاء وتعليقاتهم عن المسائل الدينية لإيجاد ما يؤيد افكارهم ذات التوجهات الثورية . والخلافات بين النخبة واردة ناهيك عنها بين الناشطين المعتدلين . هذا النبض الشعبي المحتج يكون اكثر قوة على وجه الخصوص بين السنة الاصوليين الذين ترعرعوا في معارضة الوراثة الدينية القائمة التي كانت تمنح للسلطين أو الملوك ومن ثم الى رؤساء الجمهوريات مدى الحياة . ان جبهة الخلاص الإسلامي في الجزائر لديها هيئة تنفيذية مكونة من اربعين رجلاً من بينهم اعضاء مخيفون في ايدولوجياتهم ، وهم يكرهون الفكرة

( المستوردة ) للديمقراطية بوصفها اهانة لشرع الله المقدس ( ٥٩ ) . ولكن الجبهة لم تكن

راقبوا سفك الدماء في الجزائر ، وعمليات التكفير الرهيبة التي يقوم بها الارهابيون المسلمون الذين يذبحون الاجانب كالماشية ، والثورة والحركة الاصلاحية في ايران . وعلى الرغم من الطريقة البطيئة في معارضة مبارك ، فإن مصر تعد البلد العربى الوحيد الذي لديه احسن الفرص للمزاوجة بين الأصولية والديمقراطية .

من المؤكد لو ان الاصوليين وصلوا الى السلطة في مصر لأنهم الحكومة التمثيلية . والأفكار الديمقراطية على الرغم من انها اكثر انتشاراً في مصر مما يعتقد الكثير من الغربيين ، وهى غير مستقرة مثلما هى الحالة بين الشيعة في ايران او في فتاوى آية الله العظمى السيد على السيستاني . ولكن الولايات المتحدة ستكون افضل حالاً ايضاً مع هذا الخيار بدلاً من دكتاتورية مبارك التي تكبح الاصولية وتغذيها . بدون مبارك او الجنرال الذي سيخلفه ستبدأ اعمال الشعب . وسيأتي النموذج الايراني في اللعبة . والاصوليون العقلانيون سيصبحون نقاداً اصوليين . وسيكونون مسؤولين عن مصيرهم الروحي فضلاً عن الأمراض والصرف الصحي والواردات والصادرات وحدود مديونية البلاد . ان وزارة الخارجية تتحدث عن تشجيع تغيير ( عبر الأجيال ) . ولكن الوقت يمضي بسرعة الان . واذا ما اخذنا بالحسبان سرعة تحول البنلادنية من الفكرة الى الواقع العملياتي، فإننا بطبيعة الحال محضوضون إذ أن الوضع باق على ما هو عليه، ففي عشرين سنة انهارت الثورة الايرانية واصبح رجال الدين الحاكمون موضع الحقد العميق للشعب

كتلة واحدة . علي بن حاج هو واحد من اشد منطرفي الجبهة وقد اثار مراراً الى الديمقراطية بوصفها ( سماً ) ويعود بعض اسباب ذلك الى ان الديمقراطية تلقى قبولاً بين افراد الشعب الجزائري وحتى ضمن الأحزاب السياسية الإسلامية . ( الكثير من المنشورات الإسلامية اليوم توضح ذلك بجلاء ) (٦٠) . ولطالما ذكر بن حاج الرجل الثاني في جبهة الخلاص الإسلامية بلحاج . صاحب الأفكار المعروفة عن الديمقراطية الذي بعث برسالة الى العسكريين الجزائريين مناشداً من اجل الديمقراطية (٦١) ، بوصفه الرجل الذي بدل آراء النبي وصحابته بأفكار فولتير وجفرسون وثورو ، وقد عرف بلحاج بطبيعة الحال انه لم يكن في وسعه ان يبذل الجزائريين العلمانيين او المتدينين الذين كانوا يهدفون الى ايجاد بديل ديمقراطي للدكتاتورية . ولو لم يقم الجيش الجزائري بإجهاض العملية الديمقراطية في ١٩٩١ لكان الاصوليين المنطرفون دون شك قد عدوا تلك الإنتخابات الحكم الفصل .

وفي مصر حيث الحركة الاصولية اقدم واكثر تشعباً وذات ثقافة اقل عنفاً ، فإنها كثيراً ما ناقشت (٦٢) بديلاً ديمقراطياً لنظام حسني مبارك وعلى الرغم من ان الكثيرين من المصريين يعتقدون ان التغيير سيكون بطيئاً في مجيئه وان السلطة لا يمكن ان تتم الإطاحة بها بالقوة فمن المؤكد ان عدداً كبيراً من المصريين ، وربما الاكثرية ، يرون ان النظام الحالي فاسد وانه لا يمكن ان يستمر . والمصريون الذين هم اناس منفتحون مدمنون على افلام السينما والمجلات والعالم الخارجى

وليس للولايات المتحدة فقط . والعملية نفسها لا مفر منها في مصر وفي اي مكان آخر من العالم الاسلامى ، اذا ما صار الناشطون المسلمون دكتاتوريين او ممثلين منتخبين يستخدمون القوة الحقيقية ، ان اصداء النجاح الديمقراطي في العراق قد تكون كبيرة ، ومناقشات السيستاني وأعماله في صالح الديمقراطية ممكن ان يكون لها انعكاس في العالم السنى اكثر من ذلك الذي جاء به الخمينى ودعوته الثورية . وآيات الله العراقيون والديمقراطيون يتكلمون العربية لا الفارسية . ان تفكير السيستاني بالعراقيين السنة العرب والاكراد وربما السنة العرب في انحاء العالم الاخرى مع سائر رجال الدين الكبار في النجف جعلهم يتحاشون ما في العقيدة الشيعية من غموض تسبب في غضب السنة المتطرفين في الماضي . السيستاني وآية الله العظمى الحكيم الشخص الثانى في النجف ، هما شخصان معتدلان وغير متباهيان يريدان سياسة الرجل الواحد والصوت الواحد ويتكلمون عنها بالعربية البسيطة . انهم يمكن فهمهم حتى من اقل الناس ثقافة . واذا ما تقدم العراق ، فإن السنة قد يصيبهم الخجل اذا ما استطاع المسلمون العاديون الذين كانوا يعتبرون انهم اصغر من ان ينشؤوا ديمقراطية فاعلة ، فلماذا لا يستطيعون هم ؟ ومحكمة صدام حسين التي كانت تبدو بعيدة جداً حتى في حدود التصور يحتمل ان تسيطر على التلفزيون (٦٣) . وحتى شبكة الاقمار الصناعية العربية والشبكات العربية الاخرى الناطقة بالعربية في الشرق الاوسط ما عدا قناة حزب الله اللبناني والقنوات المناهضة

للشيعية ، سيكون لديها وقت عصيب في محاولة اخفاء فضائع حكم صدام . وسيرى الكثيرون في الوطن العربي صوراً عن دكتاتور وتكتيكات دولة بوليسية مشابهة للانظمة التي يعيشون في كنفها . واذا ما نظرنا شرقاً نحو ايران ، فإن ظهور الديمقراطية في العراق التي يراها رجال الدين العراقيون لن يرحب بها ولن تستقبل بالسعادة في طهران ، فالخلافات الداخلية الشيعية لها اهميتها وهي تتمثل هنا بالشيعية الذي يؤمنون بفكرة رجل واحد صوت واحد من جهة ، واولئك الذين يؤمنون بالدولة الدينية من جهة اخرى ، وهو اختلاف لا يستهان به في وجهات النظر . علينا ان لا نخدع بما يبدو من العلاقات الطيبة بين رجال الدين في النجف وطهران . ذلك ان موقف النجف من الديمقراطية ينطوي على نفى قاطع لحق آية الله الخامنئى في الحكم وعلى الرغم من ذلك فإن تقدم الديمقراطية في الشرق الاوسط يحتمل ان يكون مناهضاً لأمريكا الى حد بعيد . ان عقوداً من مناصرة امريكا لدكتاتوري الشرق الاوسط قد ساعدت على خلق البنلادنية . والغضب الشعبى على واشنطن بسبب الاعمال السابقة ربما لن يتضاءل بسرعة حتى لو ان الولايات المتحدة غيرت موقفها وسانددت جميع الاحزاب التي تدعو الى حكومة تمثيلية . ان القومية والاصولية هما قوتان متكاملتان في معظم ارجاء الشرق الاوسط وربما سيقويان الشعور الوطنى أكثر فأكثر . إن مثل هذا الشعور يصاحبه دائماً توجه قوي مضاد للغرب . هذا ما يسميه البروفسور لويس ( تصادم الحضارات )

(٦٤) . ان الفأ واربعمئة سنة من التاريخ المتوتر والمتصارع لايمكن السيطرة عليه بسهولة، ولكن هذا الخصام يمكن ان يتلاشى . لا يمكن لأي بلد ان يكون معادياً لأمريكا اكثر من ايران الثورية . ولكن الثقافة السياسية الايرانية قد اصبحت اكثر ديمقراطية ، كما زاد الغضب الموجه الى استعلاء رجال الدين وتناقص العدااء لأمريكا . ولا مفر من وجود اختلافات مهمة في طريقة تعامل الدول المسلمة مع الولايات المتحدة ، ولكن الديمقراطية الحقيقية تشترك في قيم معينة وانعكاسات وعلاقات تجعلها اكثر اماناً وراحة بين الواحدة منها والاخرى اكثر مما بين الديمقراطيات والدكتاتوريات . ولو ان الجزال مشرف قتل فلن نعلم كيف ستكون علاقاتنا مع باكستان . واذا مات رئيس وزراء الهند- ليس من السهل تذكر اسمه - فإن موته لن يهم في شيء حيث ان علاقات الولايات المتحدة الطيبة والعميقة الجذور مع هذا البلد الذي تنتمى فيه الديمقراطية، ستستمر .

اذا ما كان هناك من علاج للمنافسة والمجاهة بين الغرب والاسلام فإن الديمقراطيات المسلمة ضرورية له .

هذا ما يجعلنا نصل الى مسألة اسرائيل وامور اخرى يجدها المسلمون كرهية ، ان المسلمين المعتدلين والليبراليين يجادلون دوماً في أن على الولايات المتحدة ان تحل المواجهة الاسرائيلية- الفلسطينية من اجل تحسين فرص الديمقراطية في الشرق الاوسط . ومثلهم مثل المسلمين الحدائين قبل سنوات ان عليهم حماية أنفسهم من تهمة ازدواجية الولاء بسبب شدة اتجاههم نحو الغرب .

واعتدالهم يصبح في نظر وسائل الإعلام الاصولية موالات للصهيونية وهو موقف صعب من الناحية السياسية في كل مكان في الوطن العربي . والعرب الليبراليون بخاصة يميلون الى جعل الديمقراطية شيئاً مشابها لانتخابات ملكات الجمال (والليبراليون الاميركان غالباً ما يفعلون الشيء نفسه(٦٥) ) : فهي ستكسب الشرق الاوسط الاسلامي فقط في حالة ما إذا كانت الولايات المتحدة مرغوباً فيها . وموقف امريكا الموالي لاسرائيل ، وحروب العراق ، وأبو غريب أو الاصولية المسيحية في البلد كما تقول نظرياتهم تجعل الديمقراطية شيئاً يستحيل تسويقه الى المسلمين الاصوليون الذين يدفعون باتجاه الديمقراطية ، بطبيعة الحال ، لايدخلون في مثل هذا النقاش . وكذلك يفعل الاسلاميون الديمقراطيون الاكثر اعتدالاً الذين تتحدث عنهم جينيف عبو . هؤلاء الناس يكرهون اسرائيل ، وان دولتين اسرائيلية وفلسطينية تعيشان جنباً الى جنب ، ليس حلاً عادلاً بالنسبة لهم وان تدخلاً أمريكياً في عملية السلام يجعل المتطرفين يكرهون الولايات المتحدة أكثر لان مثل هذا التدخل يعني إجبارهم على الرضوخ والتنازل عن حقوقهم التاريخية في ما منحهم الله ، وذلك بالتخلي عن جزء من دار الاسلام ، الذي تم غزوه منذ القرن السابع وهو النصر الذهبي للخلفاء الراشدين أفضل من خلف النبي محمد . إن فضائل الديمقراطية بالنسبة لهم ليست مقتصرة على أعمال الولايات المتحدة . وشأنهم شأن كثير من ديمقراطيي أمريكا اللاتينية فإن هؤلاء المسلمون غالباً ما يريدون الديمقراطية كي يقفوا بثبات وصلابة ضد

اليهود الامريكيين يرفضون الحقوق المدنية للمسلمين ) .

ينبغى ان يكون واضحاً ان العالم العربى يختلف تاريخياً وثقافياً الى حد بعيد عن تركيا الى درجة لا تسمح بظهور اتاتورك فيه . والامبراطورية العثمانية امتزجت مع اوروبا عدة قرون . ليس هناك حاكم عربى يستطيع ان يقول ما قاله اتاتورك :

ان افكارنا وعقولنا سوف تتحضر [ اي ستصبح اوربية ] .. سوف نكون متحضرين ونحن فخورون بذلك . انظروا الى سائر الدول في ... المسلمون ! اي مصيبة وكارثة اصابتهم لأن عقولهم لم تستطع ان تتكيف مع المتغيرات الرفيعة للحضارة ! هذا هو السبب في اننا نحن ايضا بقينا متخلفين كل هذا الامد الطويل ، ثم انتقلنا الى هذا المستنقع [ انهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى ] اذا كنا قادرين على انقاذ انفسنا من السنين القلائل الماضية ، فإن ذلك بسبب تغيير عقولنا . لن نتوقف مرة اخرى ... لن نرجع الى الخلف ... ان الحضارة هي نار ملتهبة تحرق وتدمر من لا يعترفون بها (٦٦).

من حسن حظ الاتراك ان القرآن لم ينزل بلغتهم الخاصة . واتاتورك كان الرجل صاحب القول الفصل فيما يتعلق بفساد السلطة . ان نمو الديمقراطية التركية الذى اصبح مضموناً بصورة دائمة منذ الزعامة الوطنية والدينية في الثمانينات والتسعينات لـ ( تورغوت اوزال ) قد جعل الجمهورية التركية في الداخل والخارج راغبة في انتقاد الولايات المتحدة . واصبح هدف تركيا الذى - اصبح يلقى تعاطف الحزب الحاكم الان - هو

التأثير الذى تحدثه الديمقراطية الامريكى التى ستخدش الكبرياء الاسلامى الذى سيتأثر سلباً من جراء أعمال بعض المسلمين غير الشرعيين والذين يميلون الى الولايات المتحدة على حساب المسلمين . والمسلمون المعتدلون والليبراليون عليهم أن يسيطروا على النظام السياسى الامريكى قبل أن يستطيعوا السيطرة على نظامهم السياسى الخاص بهم .

ومن المفيد التاكيد مرة اخرى على ان الديمقراطية حتى لو فشلت فى أول جولاتها فإنها تبقى الخيار الافضل المتاح للولايات المتحدة . ينبغى أن تتحرك الاصولية الاسلامية لى تقضى على البنلادنية . وفي المقابل بالنسبة للأنظمة الدكتاتورىة الموالية لأمريكا ، فليس هناك سبب تاريخى يبعث على إستمرار الاعتقاد بها .

إن الاحباط والغضب والمقاتلين المجاهدين يريدون إستهداف الولايات المتحدة بوصفها القوة التى تقف لمساندة الطغاة . والمراقبين في الشرق الوسط كثيراً ما أملوا بأن الحكام العرب سوف ينتهجون نهج مصطفى كمال اتاتورك ، المؤسس الدكتاتورى للجمهورية التركية الذى ارسى حجر الاساس لديمقراطية تركيا العلمانية . والكمالية كلمة شائعة في صفوف الباحثين والدبلوماسيين والمتحدثين الاميركان الذين يحبون العالم العربى ولكنهم يقدرون التقدم الأكثر الذى حققه الاتراك . وقد كان هذا نفسه أملاً من أمال اسرئيل اذا ما اخذنا بعين الاعتبار العلاقات الودية التى حكمت دائماً الجمهورية التركية بالدولة اليهودية (على الرغم من ان من الدقة بمكان القول بأن الاسرائيليين شأنهم شأن اكثرية

الذين لا يهضمون التحولات الديمقراطية والنساء اللاتي يلتزمن بالطرق الغربية واللواتي نشأن في ظل دكتاتوريات علمانية سيجدن صعوبة في كل ذلك . والكثيرون من الاسرائيليين ومناصريهم الامريكان قد يصيبهم الذعر من ان الدكتاتوريات المستعدة لتوقيع اتفاقيات سلام سيحل محلها اصوليون يحاولون بناء اجماع ديمقراطي مناهض للصهيونية . ولكن على هذا الدرب الوعر تكمن نهاية البنلادنية وشبح الهجوم على المدن الامريكية باسلحة دمار شامل . على الرغم من ان آية الله الخميني لم يقصد ذلك فهو ومقاتلوه الجهاديون قد أضأؤوا الطريق . وكل الطرق الأخرى سنقودنا مرة أخرى الى ٩ / ١١ .

الانضمام الى الاتحاد الاوربي الذي سيعزز اكثر هذا الاتجاه الديمقراطي المناهض لأميركا المبني على الايمان . ان العصر العلماني في الشرق الاوسط الذي تسارع بعد الحرب العالمية الاولى عندما القى المسلمون بانفسهم في أحضان العلمانية ، ، والاشتراكية القومية والشيوعية قد زال منذ امد بعيد بل لقد مات في ١٩٦٧ عندما قضى الاسرائيليون على ( الانسان العربي الجديد ) .

والدكتاتوريون العرب والملوك لا يحتمل ان يتنازلوا عن السيادة لشعوبهم بإختيارهم ، هذه الشعوب التي ستحكم بفضاضة على حكامهم السابقين وعائلاتهم واصدقائهم . وفي ما عدا بعض الاستثناءات - الملك عبد الله في الاردن وعائلته الهاشمية التي قد تستمر - فإن سائر الحكام يلقون التجريح لما جمعوا من الاموال هم وعائلاتهم واصدقائهم . قد يكون حسني مبارك على حق حين قال ان الديمقراطية في مصر تعني الفوضى (٦٧) ، ولكن الولايات المتحدة ، في الحقيقة ، ليس لديها بديل من ان تحول تحالفاتها من الحاكم الى المحكوم . لأنها لو فعلت خلاف ذلك فإنها ستصطدم بالمعتقد الاسلامي المتنامي القائل بأن الشرعية تأتي من صندوق الاقتراع . وستصطدم بالخب الديمقراطية الامريكية التي هي منبع روحنا الوطنية . على الولايات المتحدة ان تستخدم اعلامها واقتصادها لتشجيع اولئك الذين يريدون التغيير وان تعاقب اولئك الذين لا يريدونه . وفي قيامها بذلك فإننا دون شك سوف نساعد اولئك الذين يكرهوننا وقد نوذي اصدقاءاً حقيقيين لنا . علينا ان نكون اسخياء في فتح حدودنا الى اولئك المسلمين العلمانيين